الشعر النِّسوي

فى الأدب العربى والتعبير عن الأحاسيس

تأليف : د. تريسا غارولو- جامعة كومبلوتنسى بمدريد – إسبانيا

تعريب ودراسة

د. منى ربيع بسطاوى

أستاذ الأدب الأندلسى المساعد

قسم اللغة العربية – كلية الآداب فى قنا

جامعة جنوب الوادى

٢٠٠٤م

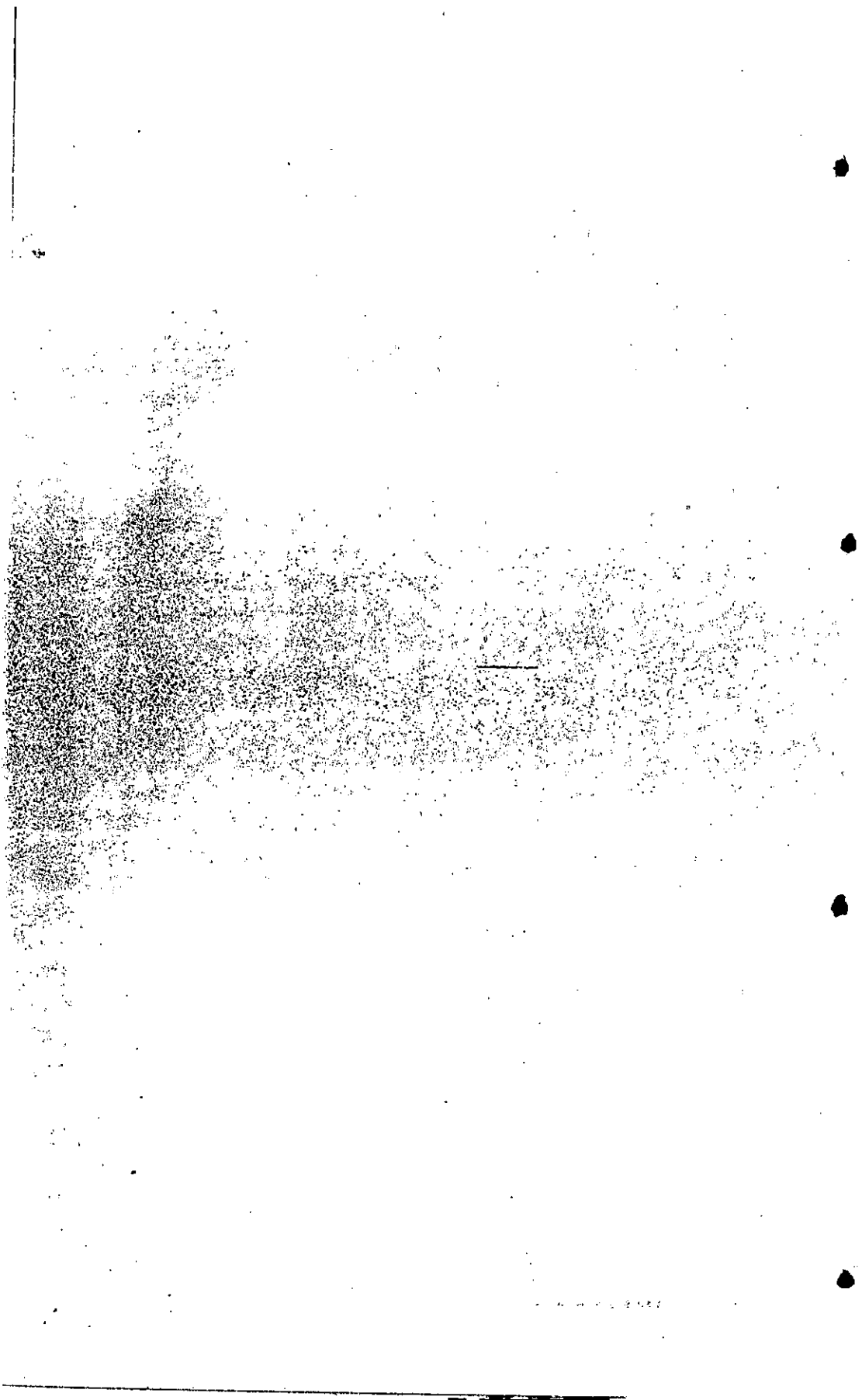

الشعـــر النِّسوي فى الأدب العربي والتعبير عـن الأحاسيس [1]

تأليف : د. تريسا غارولو - جامعة كومبلوتنسى بمدريد – إسبانيا
تعريب ودراسة : د. منى ربيع بسطاوى - جامعة جنوب الوادى بقنـا

عـندما تساءل الشاعر الجاهلي " عنترة بن شداد " في مستهل معلقته بـ " هل غادر الشعراء من متردّم " [2] من المؤكد أن سامعيه كانوا يعلمون أو يشـعرون بأنهم ليسوا سوى أمام سؤال بلاغي ، مادام الجواب كان معـروفاً مسبقاً .

لكن القصيدة الجاهلية " إذا أرادت أن تحقق الأهداف النمطية المتوخاة مـن الشـعر الشفوي ، سواء التعليمية أو الساعية إلي المحافظة علي المثل الأخلاقـية للمجـتمع الذي تنبثق منه ، كان لابد من إقرار وإعادة التأكيد علي الوظيفة السامية الموكلة إليها .

التفكير في أن " عنترة بن شداد " يعد واحداً من أوائل الشعراء العرب المعروفيـن ، وأن معلقـته تعتبر واحدة من أقدم النصوص الشعرية العربية ، يُفاجئـنا بإحساسه الذي استنزف فيه كل الإمكانيات التعبيرية في شعر عصره وبأنه كان في حاجة " لتجديدها " .

بالـرغم مـن هـذا فالشـعراء العـرب استطاعوا أن يحافظوا طوال الأربعـة عشرة قرناً التالية للعصر الجاهلي علي الشكل التقليدي للقصيدة . إلا أنهـم أدخلـوا عليها خصائص المجتمع الإسلامي الجديد ، وطوروا في تقنيات

---

(١) هـذا المقـال في شكله الأول كان مشاركتي في مؤتمر : موضوعات فى الأدب العربى والأندلسـى بـرعاية مركـز دراسات الشرق الأوسط وأقسام الأدب المقارن الإسبانية والبرتغالية والشرق الأدنى بجامعة كاليفورنيا فى بيركلى ، ٢٩ إبريل ١٩٩٥م .
واتبع نفس نظام كتابة العربية بالأحرف اللاتينية " *TrAnscripcion* " الذي تتبعه مجلتي " الأندلس " و " القنطرة " .

(٢) شـرح : فدريكـو كورينتـي فـي " المعلقات " رقم (١٢١) وما يلي . النص العربي والتعليق عليه في كتاب : " الزوزني " شرح المعلقات " صفحة ١٤٦ ، وترجمة إسبانية أخـري لمطلـع هذه القصيدة هي ترجمة : إميليو غرثيا غومث في " الشعر العربي الأندلسي " صفحة ١٠ ، أيضاً انظر : *A.J. Arberry* : المعلقات السبع : صفحة ١٧٣ .

التأليف عن طريق إدخال الكتابة هذا من جهة ومن جهة أخري لابد أن نشير إلي أن عدم إجادة الكتابة من طرف الجميع في ذلك الوقت سمح باستمرار بعض الاستخدامات الشفوية للغة وبالتالي باستمرار بعض الأنماط الأدبية التي تفرزها . كمثال علي ذلك الأشعار الشفوية العامية [٣]، المماثلة للقصيدة الكلاسيكية [٤] ، والتي تنتشر حتى يومنا هذا في أغلب الدول العربية ، أضف إلي ذلك بعض الأشعار الملحمية [٥] ، وبعض الأعمال المنتمية إلي أجناس أدبية لم تكن معروفة في الأدب العربي القديم . مع ذلك لم يطرح أحد السؤال نفسه بخصوص الشعر الذى أبدعته المرأة ، أو حتى بخصوص الأحاسيس التي استطاعت أن تعبر من خلاله عن ذاتها ، مع أنه وُجدت أشعار تنسب لنساء شواعر وتنتمي إلي نفس عصر " عنترة " نفسه .

من الطبيعي أن يحدث هذا لأن سؤال " عنترة " يعنى أنه يوجد في عصره شعراء كثيرون ومتعددون خاضوا في جميع الموضوعات والأغراض الشعرية التي يمكن تصورها ، على حين كان النظم الشعري النسوي مقتصراً في ذلك العهد علي موضوع شعري واحد أو اثنين علي الأكثر .

فالمجتمع القبلي جعل إبداع المرأة يقتصر علي غرض شعري واحد ، يعتبر مهمًا بالنظر إلي مجموع الأغراض الشعرية الأخرى : حيث كانت تبكي موت المحاربين من العائلة ، ثم من القبيلة وتطالب بالانتقام لهم ، لهذا نجد أن أقدم النصوص الأدبية النسائية التي جمعها اللغويون العرب ، الذين اجتهدوا وقاموا بحصر الأدب العربي القديم هي أشعار الرثاء [٦] ، كذلك وُجدت

---

(٣) حول مشكل الحروف الأبجدية العربية والنتائج المترتبة عنه أنظر : *Eric.A.Havelock:TheMuse* وخصوصاً الجزء الخامس ، صفحة ٤١ : صفحة ٦١ .

(٤) انظر مثلاً : *Sowayan* : الشعر الشفهى " قمم اليمن *Summon-I* " ، ١٩٩٠ ، وبالنسبة للشعر النسوي انظر : " شاعرات من البادية " لابن رداس .

(٥) انظر : *BridgetConelly,Arab Folkepic* الذى تحدث عن سيرة بني هلال في مصر ، هذه السيرة تعتبر إحدى الملاحم التي لقيت نجاحاً كبيراً في بلاد شمال أفريقيا .

(٦) انظر : " رياض الأدب " : لويس شيخو .

بعض أشعار التغني بالقبيلة [٧] ، لكن لم يكن لها الأهمية نفسها لا من الناحية العددية ولا الناحية الأدبية بالمقارنة مع المرثيات .

بالنسبة لهذه الأشعار لا يمكننا أن نجزم بأن النّساء كنّ يعبرن من خلالها عن أحاسيسهن كما تشير : " سوزان ستيتكفتش " فالطابع الأساسي فيها هو رثاء (أسياد القبيلة والرجال والآباء ، والإخوة والأزواج ، أو الأولاد) الذين شاركوا في الحرب وماتوا خلالها ، والغاية منها المطالبة بالثأر لهم ، أي أنها ليست سوى واحدة من طقوس القبيلة التي لا يمكن أن تعبر بأي حال من الأحوال عن الأحاسيس الشخصية .

أما بالنسبة لأسلوبها فهو أسلوب الشعر الشفوي نفسه ، فلا يمكننا تقسيمه كالعادة إنطلاقاً من مفاهيم رومانسية كالإبداع والصراحة ، دون الوقوع في التأويل الخاطئ لها .

من الضروري أيضاً أن نشير إلي أن هذه المرثيات قد حُفظتْ بعامة داخل تراجم بعض الرجال ، ولم تستطع أن ترقي إلي أكثر من كونها مجرد شاهد علي حياة بطولية (ستيتكفتش *The mute* صفحة ١٦٣ ، صفحة ١٦٤) وهذه الأشعار كانت قصيرة لأن المرثيات الطويلة كانت حكراً علي الرجال " ستيتكفتش *The mute* صفحة ١٦٤ . [٨]

إذا ما تركنا جانباً أشعار الرثاء هذه ، وجدنا النّساء يعبّرن عن إحساس آخر من خلال بعض القصائد يجعلنا نخجل ونفاجأ أمام جرأته :

---

(٧) انظر جولد تسهير ، إجناتس : " مخطوطات مجمعة " ، الناشر دى جوزيف ديسموجى – هلدرس هايم : ناشر الكتب جيورج أولم ، ١٩٦٨ ، و (العصر الجاهلى وأغانى الرثاء) ، مجلة فيينا لعلوم بلاد الشرق ، العدد الثانى ، ١٨٨٨ ، صفحة ١٦٤ – صفحة ١٦٧ .

(٨) أنظر : ستيتكفتش ، تشير إلي " بعض الملاحظات على الرثاء العربى فى الجاهلية والإسلام" ، لمعرفة المزيد عن الاختلافات بين هذين النوعين من المرثيات ، انظر شروح : ستيتكفتش للمرثيات المنظومة من طرف النّساء فى الجزء الخامس ، وأيضاً شروح مرثيات المهلهل فى الجزء السادس للموت ، صفحة ٢٣٨ – صفحة ٢٠٦ .

إنــه انتعبــير عن الإحباط الجنسي في تلك الفترة وصلتنا قصائد لنّساء هجون أزواجهن لأنهم لم يستطيعوا إشباعهنّ جنسياً ، وكانت هذه الأشعار من الأهمية بمكان لدرجة أن " أم الورد العجلانية " التي عاشت في العصر الأموي ، تمكنت مــن أن تجعــل حاكم اليمامة يأمر بتطليقها من زوجها [٩] معتمداً في ذلك علي أشــعارها في هذا الباب كشهادة للتعبير عن الإحباط الجنسي . إذن فهذا النوع مــن الشعر كان ممكناً لأنه كان يرد في نطاق أشعار الهجاء ، التي كان السب الجنســي واحــداً مــن أهم مكوناتها إذا أرادت تحقيق غايتها ، كما هو الشأن بالنســبة لكثير من المرثيات . ولقد جاءت أوزان أبيات " أم الورد " علي بحر " الرجز " *(Rayaz)* وفي شكل قصيدة شفوية ، تجعلنا نشك في إنها في موضع مناسب للحديث عن الأحاسيس . لكن زمن الشعر الشفوى ، قد انقضت وظيفته العاديــة ، فيما يبدو ، بانتهاء الحكم الأموى . أما بالنسبة للشعر النّسائي فإن أخــر مــا وجــد مــنه هي المرثيات التي أبدعتها نساء الخوارج *(Jarjyies)* أثــر الحــروب الشــنيعة التي أقصتهم عن المشهد السياسي ، وبعد ذلك ساد الصمت . [١٠]

إذن لــم يــبق شــيء للنّســاء يقلنه [*] بعد تجريدهن من وظفتيهن المعتادة التي تتمثل في بكاء محاربي القبيلة .

---

(٩) أنظر : المرزباني " أشعار النّساء " : من صفحة ١١٠ – صفحة ١١٥ ، وأم الورد هذه نظمت قصيدة هجاء أخري ضد أخيها للأسباب نفسها .

(١٠) قــد يُعطــي فكــرة أكبر عن الموضوع كتاب بشير يموت " شاعرات العرب " بما فيه من شاعرات هن : (١١٦) جاهلية ، و (٧٣) شاعرة أموية ، (١١) شاعرة أندلسية ، و (١٢) شــاعرة عباســية . رغــم أن الكتاب موجز خصوصاً فيما يتعلق بالشاعرات اللواتي جئن بعد العصر الأموي .

(*) لــم يشر البحث إلى أشعار الطفولة ، أو أشعار الترقيص وهى من الفنون التى اختصت بهــا المــرأة فتحــنو علــى أولادها ، وتُغّى بتثقيفهم ، وترسلهم إلى البادية ، موطن الفصــاحة ورواية الأشعار ، مثل أشعار حليمة السعدّية والشيماء أخت الرسول (صلى الله عليــه وسلم) فى الرضاعة ، فقد كانت تمثل أشعار الطفولة صفة مميزة للمرأة =

إن هذا الصمت كان نسبياً إلى حدٍ ما لحسن الحظ ، لكنه كان محسوساً بشكل وأضح حتى أنه دفع بعض كُتّاب العصر الوسيط العرب المهتمين بجمع أشعار النّساء إلى الحديث عنه . وأهم شهادة في هذا الباب هي للسيوطي المتوفى (٩١١هـ/١٥٠٥م) الذي أكد في مقدمته المختصرة من كتابه : " نزهة الجلساء في أخبار النّساء ، صفحة ١٩ " أن النّساء الشاعرات " المحدثات " أى بداية من العصر العباسى وهو بهذا يترك جانبًا " المتقدمات من العرب العرباء ، من الجاهليات والصحابيات والمخضرمات " أى أولئك اللواتى عشن فى العصر الأموى .

وعلى الرغم من كثرة شاعرات هذه الفترة الزمنية التي لا تتعدى قرنين ونصف القرن من الزمان تقريبًا ، فإنهن ينتمين إلى منطقة شبة الجزيرة العربية ، وإلى مناطق الحدود مع سوريا والعراق .

ويؤكد السيوطي في مقدمة كتابه الذى أشرنا إليه هذه الكثرة ، معتمداً على كتاب ابن الطراح (*) " أخبار النّساء الشواعر " من العربيات اللاتى يستشهد بشعرهن فى العربية ، (وجاء في عدة مجلدات ، رأى السيوطى المجلد السادس منه) ، أنهن الشاعرات اللاتى اتخذن أشعارهن شواهد ومصادر للمعاجم وكتب النحو والصرف فى اللغة العربية لغة القرآن الكريم .

–الشاعرة فقد اختصت المرأة بإنشاد الأشعار التى ترعى الطفولة ، فتفيض حناناً ورقة ، وتشع إيماناً ، تُبين مدى اهتمامها بطفلها ، وقد كان هذا الغرض شائعاً قبل الإسلام إلا أنه بلغ الذّروة فى أشعار " صفية بنت عبد المُطّلب " حيث مثلت أول مدرسة تربوّية للتحليل النفسى للأطفال ، سبقت فيها علماء النفس فى العصر الحديث مثل " جون كارل فلوجل " حين يتحدث عن الإثم والشعور بالخطيئة . (المترجمة)

(*) ابن الطراح : هو فخر الدين بن مظفير بن الطرّاح من رجال العصر المغولي في العراق كان يقول الشعر الجيد عاش ستين سنة ونيفاً (سنة ٦٩٤ هـ) الأعلام للزركلي " المترجمة " .

أقـول علـى الرغم من كل هذا فإن كتاب " نزهة الجلساء " للسيوطي لـم يتضـمن سـوي أسـماء أربعين من النِّساء الشواعر اللواتي عشنّ في الفـترة الممـتدة مـا بيـن القرنيـن (الثاني الهجري / والثامن الميلادي) ، و (الثامـن الهجري / الرابع عشر الميلادي) والمنتميات إلي الشرق والغرب الإسلاميين .

يمكـن القـول : إن كتاب " نزهة الجلساء للسيوطي لم يكن مستفيضاً ولا شاملاً ، لأنه إلي ما تقدم لم يُغن إلا بذكر الشواعر الحرائر مع أن المصادر العربـية تحدثـت أيضـاً عن شعر منظوم أبدعته شواعر إماء . وفيما يتصل بشـواعر الأندلـس ، لـم يشـر السيوطي إلا لست عشرة شاعرة رغم أن عددهـن قد يصل إلي تسع وثلاثين إذا اعتمدنا علي مصادر أخري . لكن حتى لو ضاعفنا عدد الشواعر الوارد ذكرهن في " نزهة الجلساء " ثلاث مرات يبقى حضور النِّساء في مجال الشعر ضئيلاً وشبة منعدم .

فماذا حدث إذن مع نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي ؟

سـؤال قـبل الإجابة عليه يجدر بنا هنا أن نشير إلي مقدمة كتاب أبي الفـرج الأصـفهاني " الإماء الشواعر " لأن الحديث عن الشعر النِّسائي الذى نظمـته شـواعر إمـاء فى هذه المرة يجعلنا نقف علي مشكل مهم وهو تغير معايـير جمالـية الأسلوب التي تحكمها التغيرات التي تحدث نتيجة الانتقال من فـترة إلـي أخري ، فأبو الفرج الأصفهاني كان قد ألف كتابه بتكليف من أحد الوزراء الذي طلب منه جمع كل الأخبار الممكنة حول " إماء " ينظمن الشعر ، لكـنه قـال : " من بين إماء العصر الأموي لم أجد ولا شاعرة واحدة ، سواء أكانت معروفة أم لا " لأن المدونين لم يقوموا بإحصاء الشواعر اللواتي نظمن شـعراً ناعمـاً [*Lin*] ، بل كان اهتمامهم فقط منصباً علي الشواعر اللواتي نظمـن قصـائد كثيرة باللغة العربية الفصحى " القُحة " . وجمَع هذا النوع من الشـعر لم يكن يعمم إلا مع بني هاشم " العباسيين " الأصفهاني كتاب : " الإماء الشواعر " صفحة ٢١ .

مـــا حدث فى العصر الأموي من تدوين القرآن الكريم وضبطه وحفظه مـــن الـــتلف يعتـــبر انتقالاً من ثقافة شفوية إلي أخري تستخدم الكتابة لحفظ ذاكرتها . (١١)

هـــذا التغـــير الذي حدث كانت له نتائج سلبية علي الشعر ، مثل التي أشار إليها نص " الأصفهاني " السابق الذي يتحدث فيه عن النوعمة *[Lin]* في الشعر وفي مختلف مظاهر الإبداع الفني باللغة العربية خلال العصر العباسي .

هـــنا ســـأحاول التركيز علي بعض النقاط التي أثرت سلباً علي النِّساء في هذا المجال : وإن هذا التغيير ساهم بشكل كبير في تهميش دور النِّساء في مجـــال الأدب ، أو بالأحـــري داخل ما سيعتبر ، إنطلاقاً من هذا التاريخ أدباً ، لأنـــه لم يكن يُعَنِّي أصلاً بتعليم النِّساء الكتابة ، ويجب ألا ننخدع بالمعطي الذي يفيد بأن عدد النِّساء اللواتي تعلمنّ الكتابة والقراءة داخل مجتمعات ومستويات معينـــة فـــي فـــترة زمنـــية محددة بالأندلس كان مرتفعاً نسبياً ، وإلا فما قيمة ومـــا أهمـــية مائـــة وستة عشرة امرأة " عالمة " اللواتى علمنا بوجودهنّ في الأندلـــس : " آبـــيلا " : النِّســـاء : صفحة ١٣٩ – صفحة ١٨٤ مقارنة بالعدد الهـــائل مـــن الـــرجال الذين كانوا يشتغلون بمختلف العلوم والآداب في نفس المنطقة (الأندلس) ؟

وهـــذا المعطـــي بدوره يجب ألا يُعمم علي وضعية المرأة في المجتمع العربـــي لأن كـــل النِّساء العالمات اللواتي تحدثنا عنهن ينتمين وبدون استثناء إلـــي الطـــبقة المثقفة ، وكان الرجال من ذويهم هم الذين يتكفلون بتعليمهنّ . ونظـــراً لكـــون الـــرجال هـــم الفئة الأكثر استفادة من نوعية التكوين والتعليم الجديـــدة الـــتي تولدت نتيجة إدخال الكتابة فإن الأنماط الأدبية التي اهتموا بها تطـــورت داخـــل الـــنطاق التقليدي نفسه ، وحافظت علي مسارها في المجال الأدبـــي ، وأعنـــي هنا القصيدة الجاهلية المدحية والمرثيات الطويلة ، وقصائد

---

(١١) أخص بالذكر هنا الجزء السابع من *"Speech Put In Storage"* لـــ *"Eric A. Havelock"* وإن كان يتحدث فيه عن الثقافة الشفوية ، وأود أن أشير إلي أنه في الكتاب يؤكد علي أن الشعر ديوان العرب : أنظر أيضاً *" Ong , Orality and literacy "* .

الهجـــاء " ، بينما أقصيت نهائياً من مجال الأدب العربي الفصيح أشعار الرثاء القصيرة أى المقطّعات التي هي من اختصاص النّساء . وهذا يفسر لنا إلي حد ما عدم الاعتراف الصريح بأن هناك شواعر أندلسيات نظمن أشعاراً في الرثاء .

إن هـذا التهميش للنّساء كانت لـــه علاقة أيضاً بالتغيرات التي طرأت علي المجتمع الإسلامي خاصة بعد انتشار الإسلام . انطلاقاً من العصر الأموي حيـث بـدأت الـثقافة العربية تزدهر في المدن ، وحيث تُوفّرت للنّساء فرص للمشـاركة فـي الحياة الاجتماعية مقارنة بحياة البادية [١٢] واحدة من الفرص القلـيلة التـي كانت تتيح للمرأة الظهور أمام الملأ داخل المجتمع القبلي ، هذه الفرصة كانت من أجل بكاء القتلى وطلب الثأر لهم (ستيتكفتش " *The mute* " صفحة ١٦٥) ولكن مشهداً مثل الظهور المسرحي لـ " نائلة بنت الفرافصة " وهـي محاطة بوصيفاتها في مسجد المدينة لطلب الثأر لمقتل " عثمان " والذي وصَـفه " ابن طيفور " في كتابه " بلاغات النّساء " : صفحة ٩٦ – صفحة ٩٨ بشـكل جـد جميل : لم يعد يتكرر فيما بعد في أي مصدر من المصادر الأدبية العربـية . ولكـن هـذا لا يعنـي بأي حال من الأحوال أن المرثيات الشفوية القصـيرة أو المقطعات التى تنظمها النّساء قد اختفت نهائياً من العالم العربي والدليل علي ذلك استمرارها حتى يومنا هذا وبخاصة في البوادي .

أما عن كتاب ابن ردّاس " أخبار النّساء الشواعر "من صفحة ٣١٩ – صفحة ٣٩٣ ، والذي يتضمن أكثر من أربعين مرثية لأكثر من ثلاثين شاعرة معظمهـن من شبه الجزيرة العربية " السعودية " بعض هذه المرثيات تحتوي علي المطالبة بالانتقام لهم أيضاً . "ليلي لجحود " تشير إلى أشعار خاصة لبكاء

---

(١٢) الوضـع هـنا مماثل لمـا تصـفه " ليلـي لجحـود في كتابها : المشاعر المكبوتة *"Veiled Sentiments"* : " الشـرف والشعر في المجتمع البدوي صفحة ٧٣ – صفحة ٧٤ " والتـي جـاءت نتيجة للتمدن الجديد بحيث أصبحت حرية المرأة فى الحركة أقل لأنهـم يـرون أن المـرأة إذا لـم تصن نفسها في المدينة كما يجب تتضاعف إمكانية وقوعهـا في الخطأ ، وتحيد عن طريق الشرف الذي يقتضي ألا تتعامل مع رجال وإنما يمكنها أن تتعامل مع رجال العائلة .

القتلى (*bka*) في الصحراء الغربية لمصر مؤكدة علي طابعها الاعتيادي والتقليدي أنظر " المشاعر المكبوتة " (*Veiled Sentiments* من صفحة ١٩٧ إلي صفحة ٢٠٤) .

لكن كل هذه القصائد منظومة باللغة بالعامية ولم تحظ باهتمام باحثي الفلكلور وعلماء الإنثروبولوجيا إلا مؤخراً ، وهذا يحيلنا إلي واحد من أهم مشاكل تاريخ اللغة ، هذه اللغة التي جعلها اللغويون مادة لدراساتهم ، وصنفوها في (معاجمهم) كانت لغة القرآن الكريم ، ولغة الشعر الجاهلي ، ومميزة هذه اللغة أنها تختلف تماماً عن اللغة المستعملة في الحياة اليومية . إنها سجل من الكلمات القديمة التي تتماشي مع ما تفرضه أوزان النظم الشفوي *(Zwittler,The Oral,170-171)* : صفحة ١٧٠ ، صفحة ١٧١ .

أضف إلي ذلك الألفاظ العامية التي أخذت من مناطق عربية مختلفة ، وقد نجح اللغويون العرب بدرجة كبيرة في محاولة منع تبذل أو تدني ما يسمونه لغة الأدب، التي أصبحت منذ ذلك الحين ، أي منذ منتصف القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، اللغة المكتوبة ، في حين تطورت العاميات أو اللهجات المحلية بشكل جد ملحوظ .

وكانت النتيجة تزايد نسبة الاختلافات بين اللغة المكتوبة ، وبين اللغة العامية التي أقصيت كل تجلياتها الفنية وكل تعابيرها عن المنظومة الأدبية لعدم استيفائها لشروط الجودة اللغوية التي يحددها علم النحو .

مجمل القول إن تطور المجتمعات ، وتغير معايير جودة اللغة والانتقال من ثقافة شفوية إلي ثقافة أساسها الكلمة المكتوبة ، ألغي وجود المرأة وأقصاها عن واحدة من التعابير الشعرية التي كانت خاصة بها .

لكن النساء اللواتي ولدن ونشأن داخل هذا التقليد الأدبي الجديد تمكنّ من الخوض في غرض شعري خاص بالدرجة الأولي بالرجال هو : " المدح " ، لكن ليس بالشكل الذي قد تتصوره ، صحيح أن المصادر العربية المؤرّخة في العصر الوسيط تحدثت عن بعض الشواعر اللواتي نظمن قصائد مديح ، ولكن لا تعطيهن أهمية تُذْكر ، وحتى وإن حدث هذا فإنه يكون بشكل جد بسيط وسطحي .

فالسيوطى مثلاً في كتابه " نزهة الجلساء " : صفحة ٣٢ ، وصفحة ٣٥ ، وصفحة ٧٧ ، وصفحة ٧٨ ، وصفحة ١٠٩ " ينسب قصائد مدحية " لتقية أم على " و " للحجناء بنت نُصيب " ولـ " عاتكة بنت محمد المخزومية " ولـ " مخزومية " أخري قد تكون هي المخزومية السابقة نفسها ، ولكنه لم يورد في كتابه سوي ثلاث قصائد أو بعبارة أدق مقطوعات لا يتعدى طول الواحدة منها سبعة أبيات مأخوذة من قصيدة " للحجناء بنت نصيب " كانت قد نظمتها في حق الخليفة " المهدي " .

الشيء نفسه حدث في الأندلس ، فمن بين تسع وثلاثين شاعرة من اللاتي نعرفهن ، يذكر أن ثلاثة منهن فقط هن اللواتي نظمن شعراً في المديح وهن : " عائشة بنت أحمد " و " الغسّانية البجانية " و " حفصة الركونية " ، ولكنه لم يجمع من أشعارهن سوي مقطوعات قصيرة (غارولو : ديوان شوا عبر الأندلس : صفحة ٤٣ ، صفحة ٤٤) . والشاعرة الوحيدة التي حُفظ لنا أكبر عدد من قصائدها المدحية هي " سارة الحلبية " (غارولو " شاعرة أندلسية من الشرق "صفحة ١٥٣ ، صفحة ١٧٧) ومجموع هذه القصائد كان إحدى عشرة قصيدة ، ثلاثة قصائد نظمتها في حق ملوك المغرب (الحفصي والمريني والنصري) وجمعت منها مقطوعات صغيرة فقط ، وثمان مقطوعات في مدح عائلة العزفيين المالكة في سبتة . وهذه القصائد الثماني الأخيرة ولو أنها وردت كاملة إلا أنها لم تكن طويلة فلم تصل أى واحدة منها إلي عشرين بيتاً .

يبدو لي أنه من الأهمية أن أشير إلي أن هذه القصائد المدحية القليلة والقصيرة نظمتها نساء حرائر لأنه الأندلس لم تعرف إسهام الإماء والجوارى فى الإبداع الشعرى ، وثمة احتمال كبير أن الشيء نفسه كان يحدث فى مناطق عربية أخرى ، فى ضوء المعطيات التى أوردها جلال الدين السيوطى فى كتابه والتي تتصل بهذا المجال فهو يتحدث فى كتابه " نزهة الجلساء " الذى خصصه لنساء حرائر عن قصائد مدحية نظمنها ، لكن فى كتاب " المستظرف من أخبار الجوارى " الذى يضم نوادر الجوارى وأشعارهن كما يدل على ذلك اسمه ، لم يضم أى قصيدة مدحية ولم يقل عن أى جارية أنها نظمت هذا النوع من الشعر كما فعل فى كتابه " نزهة الجلساء " .

فالتمييز بين النساء الحرائر وبين الجوارى لم يأت عفواً ، وكلام الأصفهانى فى مطلع كتابه " الإماء الشواعر " يحيلنا إلى تغير آخر جاء نتيجة الصعوبات التى أصبحت تعترض النساء الحرائر عند محاولتهن المشاركة فى الحياة الاجتماعية داخل المدن ، وهذا التغير هو تحسن وضعية الجوارى ، وتزايد مشاركتهن فى الحياة الأدبية ، وهكذا ظهرت الجوارى المترفات اللاتى نشأن فى محيط شعرى وموسيقى فأصبحن يُجدن الغناء ويُبعن بأثمان باهظة .

هذا الوضع الجديد أي اختفاء النساء الحرائر من المحيط الاجتماعي الأدبي ، وتعويضهن بالقيان لم يدم طويلا ، فمنذ بداية النصف الأول من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي بدأت تظهر كتب تنتقدهن ، وتنتقد جُلاسهن مثل كتاب " القيان " للجاحظ *(Beeston,The Epistle)* أو الكتاب الذي ألفّه " الوشّاء " تحت العنوان نفسه [انظر : ترجمة كتاب الموشى للوشّاء لتريسا غارولو صفحة ٢٩ ، صفحة ٣٠ ، صفحة ١٧٢] والذي ينتقد فيه ما يسميه بقوادة الجواري . أما الكتب التي ألفت فيما بعد ، فيبدو أنها نسيت تماماً الخطر الأخلاقي والاقتصادي الذي قد تشكله " القيان " واهتمت أكثر بجمع الأبيات التي تُنسب إليهن أو بعض النوادر والمواقف التي تعرضن لها على مدي حياتهن . كما فعل أبو الفرج الأصبهاني في كتابه " الإماء الشواعر " في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، أو السيوطي في كتابه " المستظرف من أخبار الجواري " بعد ذلك بخمسة قرون .

فالتكوين الدقيق الذي كانت تتلقاه هؤلاء القيان للمشاركة في مجالس السمر ولتحقيق المتعة واللذة للرجال كان أساسه الموسيقى والغناء ، بالإضافة إلي المعرفة التامة والعميقة لجميع أغراض الشعر العربي القديم ، ولكن فيما يبدو أن هذا التكوين كان قائماً علي التلقّى الشفوي أكثر مما يقوم علي القالب التعليمي الجديد الذي يستفيد منه الرجال والذي أساسه الكتابة والدليل علي هذا النوادر التي تحكي تفوق بعض هؤلاء القيان علي الشعراء في ارتجال أشعار ، كان يطلبها الذين يحضرون مجالسهن الأدبية ، التي كانت تتخذ من قصور الخلفاء أو قصور بعض ذوي الشأن الرفيع من الحاشية . مركزاً لها وأيضاً من منازل أسيادهن الذين يقومون في أحيان كثيرة بدور متعهدي الحفلات .

فـــي هـــذا الإطار أشتهر كثير من " المناظرات " بين " عَنّان " جارية النَطافي وبين أبي نواس ، والعباس بن الأحنف ، ومروان بن أبي حفص (*) . وأيضاً بين " فضل " وبعض الشعراء .

تتمـــتع القـــيان بفضل اعتماد تربيتهن على الرواية الشفوية ببديهة ، تتصف بسرعة خارقة تختلف عن بطء الشعراء وحاجتهم إلى الورقة .

تعوّد النظم الشفوي ، والتلقائي يفسر لنا استمرار تداول أشعار الرثاء القصـــيرة بينهـــن ، رغم أنه لم يحفظ منها سوى بعض الأمثلة القليلة ، وكلها بالعربية الفصحى .

فالسيوطي مثلاً : لم يجمع سوي سبع مرثيات قصيرة (١٣) ، نسبها إلي ســـت شـــاعرات ، وضـــمّنها كتابه " المستظرف " (١٤) ، وأشار إلي أن بعض هـــؤلاء الشـــواعر ، " كمحـــبوبة " مثلاً : نظمن أشعاراً كثيرة من هذا النوع ، ولكـــن بالـــنظر إلي المصادر العربية ، نجدها تتحدث باستمرار عن الألم الذي تشـــعر بـــه أولئك الجواري ، بعد وفاة أسيادهن أن هذا يكون دائماً هو الداعي إلـــي نظم أشعارهن ومن ثمّ يمكن القول بأن أشعار الرثاء ما تزال تحافظ علي وظيفتها المعتادة والتقليدية رغم مرور الوقت .

في هذه الأشعار لا يمكننا أن ننكر حضور الأحاسيس الشخصية ، كما فـــي أشـــعار الـــرثاء القديمة ، وبداية من العصر الأموي . بدأت تبرز ظاهرة جديـــدة ، كـــان لهـــا دور كبـــير فـــي تغيير الحس الجماعي ، وكان لها أيضاً انعكاسات علي الشعر النّسوي .

هـــذه الظاهرة هي بروز الشعر الغرامي ، أو العاطفي في الحجاز في الثلث الأخير من القرن الأول الهجري / السابع الميلادي .

(*) ستيتكفتش : " شواعر العرب " صفحة ٧٣ ، والأصفهاني : " الإماء الشواعر " : صفحة ٢٣ – صفحة ٤٤ ، والسيوطي : " المستطرف " : صفحة ٣٨ – صفحة ٤٧

(١٣) مـــن الأفضـــل لو أخذنا بعين الاعتبار أيضاً بعض المرثيات التى نظمتها نساء حرائر والتي جمعها السيوطي : مرثية " ثمامة بنت عبد الله " والتي نظمتها في حق أخيها " سُوّار " ومرثية " لُبابة " حفيدة الخليفة " المهدي " في حق زوجها الخليفة " الأمين " .

(١٤) انظر : السيوطي : " نزهة الجلساء " صفحة ٣٦ ، صفحة ٣٨ .

وهـذا الـنوع مـن الشعر ، سيواء كان في المحيط البدوي أم المحيط الحضـري ، كـان يعتمد أساساً علي سرد التجارب الشخصية ، وعلي تحليل المواقـف التي يعيشها العشاق ، وساهم في خلق ما يمكن تسميته بـ " الرجل العاطفي " الذي تحول مع حلول أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي فـي كتب مثل : كتاب " الزهرة " لابن داود الأصبهاني ، وكتاب " الوشّاء " إلي نمـوذج للـرجل المهذب اللبق . إن محاولة البحث عن أخبار في تراجم هؤلاء الشـعراء ، قـد تسـاعد فـي فهم قصائدهم الغرامية ، وتجعلنا أمام نوع من الـتراجم " الروائية " الحافلة بمجموعة من قصص الحب ، حيث يعبر العشاق " الشـعراء " ، من خلال قصائدهم عن مشاعرهم ، وحين تعشق النّساء أيضاً فهـن يعـبرن عـن عواطفهن ، بل ويمُتن من الحب ويخبرنا الفهرست للنديم (" *Ghazi,la literatura* " صـفحة ١٦٤ ، صفحة ١٧٨) . الذي يؤرخ للقرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) . يخبرنا عن استمرار نجاح هذا النوع من الشـعر ، حـتى تلـك الفترة ، وكتاب " طوق الحمامة " لابن حزم القرطبي ، يطلعـنا علـي عدد كبير من القصص من هذا النوع ، لكن يبدو أن نقاد الأدب فـي العصـر الوسـيط قـد أهملوا هذه الأشعار ، ولم يعطوها ما تستحق من الأهمـية ، حـتى وإن أشـاروا إلـيها فـإن الإشـارة تكـون جد مختصرة وسـطحية ، في بعض كتب الأدب ، خصوصاً التي تتحدث عن الحب في نطاق الأدب الشـعبي الشـفوي ، فنجاحها وتفوقها ما يزالان ملموسين حتى يومنا هـذا . (١٥)

وعـن أهميتها يمكن أن نقول إنها تكمن في أنها عكست مشاعر تلك الفترة ، وليس مشاعر الرجال فقط ، بل والنّساء أيضاً .

ابـتدءً من العصر العباسي ، بدأ يتزايد عدد الشواعر اللواتي يتحدثن عـن الحـب وعن الحنين ، في الوقت الذي أخذت تختفي فيه مواضيع تقليدية كالـرثاء والمطالـبة بالـثأر . ورغـم كل هذا ، وكما قلت سابقاً فنظم الشعر النّسوي تراجع كثيراً مقارنة مع عصور سابقة .

---

(١٥) كمـثال علـي هـذا ، أنظـر : " ألف ليلة وليلة " وأيضاً ، ليلي لمجنون : " المشاعر المكبوتة " صفحة ٢١٠ ، صفحة ٢٣٩ .

مـن المحـتمل جـداً أن يكون هذا الأمر مرتبط بواحدة من خصائص هـذا الشـعر في العصر الجاهلي ، فقد كان دائماً خاضعاً ومرتبطًا بتغير حياة الرجال ، مما قد يؤثر بشكل ملحوظ علي تناقله وحفظه .

ويـبدو أن هذا التأثير استمر طويلا ، منذ بداياته الأولي ، وهذا الشعر لم يكن يُجْمع إلا ليكون مكملاً لتراجم الرجال ، أو لنشأتهم الأدبية أو ليكون في خدمـتها ، أي أن الاهتمام به لم يكن أبداً لماهيته وإنما بغرض تعزيز وتزكية الصـورة المقدمـة عـن الـرجال ، أو بصفته مجرد طريقة أو مجال لتطبيق نظـريات هؤلاء ، ففي الأندلس مثلاً وبالنسبة للحالة الأولي ، نجد أنه لم يكن ليشـار لأشعار الأميرة " ولاّدة بنت المستكفي " إلا في إطار الحديث عن حبيبها " ابن زيدون " .

نفس الشيء حدث بالنسبة لـ " حفصة الركونية " لأنه لولا علاقتها " بأبـي جعفـر بـن سـعيد " ما ظهر اهتمام عائلة " بني سعيد " بجمع أبياتها وتـناقلها . أما في الشرق فالأمر لا يختلف كثيراً عما هو عليه في الأندلس . بحيـث نجـد مؤلفات مثل : كتاب " وجهة الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء " لصـاحبه ابن الساعي " المتوفى (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) والذي نشر تحت عنوان مبسـط هو : " نساء الخلفاء " . ففي هذا الكتاب نجد تراجم للشواعر والقيان اللواتـي كانـت لهـن علاقة بالخلفاء ، مع ذكر للأشعار التي نظمنها ، ولولا علاقتهن هذه ، ربما ما كنا نعرف حتى الآن بوجودهن ، فى الحالة الثانية نأتى بمثال : استعمال المقرّي للشعر النّسوي لتأكيد أقواله ، فهو من عائلة مرتبطة ثقافـياً بـالأندلس وإحساسـه بالحنين الدائم إلي هذا الوطن الذي فقده ، جعله يـتحدث عـن تفوقها في المجال الأدبي يقول : " الأدب في الأندلس كالغريزة ، تتفوق فيه النّساء وحتى الأطفال [انظر : المقرّي ، نفح الطيب حـ٤ / صفحة ١٦٦] وقـد اسـتعرض فى كتابه " نفح الطيب " بعض أشعار النّساء للتأكيد علي ذلك .

أضـف إلي هذا العامل الفقدان المزري لمجموعة من المؤلفات التي خصصـت لجمـع الشعر النّسوي ، فمثلاً من بين أحد عشرة كتاباً يشير إليها (*Sezguin: Geschicte des Arabischen* جـ٢ ، صـفحة ١٠٢) حفظت لنا ثـلاث كتـب فقـط : كتاب " الإماء الشواعر " لأبي الفرج الأصبهاني ، وكتاب

" نساء الخلفاء " لابن الساعي ، وكتاب " المستظرف " للسيوطي ، رغم أننا لا نضيف إلى هذه القائمة الصغيرة كتاب " نزهة الجلساء " للسيوطي ، ولا كتاب " أشعار النساء " للمرزباني ، الذي لم يصلنا منه سوى الجزء العاشر حسب ما أكده محققوه ، فإن عدد المؤلفات التي ضاعت جد مهم . نعم يمكن أن يكون ضياع الكتب المتخصصة لجمع الشعر النسوي وعدم انتظام جمعها السبب في تقلصها .

ولكن يمكننا أيضا أن نرجع الأمر لعوامل شخصية خاصة بالمرأة نفسها ، أو لأسباب مرتبطة بنوعية الشعر الذي ينظمنه أو إلى وضعيتهن في حد ذاتها ، لأنه بمجرد ظهور الشعر العاطفي النسوي ، بدأ يتقلص عدد الشواعر وعدد الأشعار المحفوظة .

ألا يمكن أن يكون السبب إذن في أن هذا النوع الجديد من الشعر كان ينظم ليظل داخل نطاق خصوصيات النساء ودون حتى أن يطلع عليه الرجال أو يعلموا بوجوده ؟

هذا من المحتمل لأنه يوجد إلى اليوم شواهد كثيرة تدعو إلى التفكير بهذا الشكل فمثلاً " *Aline Touzin* " في كتابها : (الصوت المرتفع " *A haute voix* " ، صفحة ١٧٩) تتحدث كيف أن الشعر النسوي في موريتانيا كان وما زال حتى وقت قريب من الآن لا يُغَنّي ولا يُلْقَى إلا بين الصديقات فقط . لا سيما إذا كان يتحدث عن الحب . والشيء نفسه تقوله : " ليلي لجحود " عن عائلة " أولاد علي " التي أعدت عنها بحثاً ميدانياً : " فالنساء رفضن الغناء أمامها ولم يقبلن ، حتى أكدت لهن أنها لن تخبر أحداً من الرجال بذلك : (المشاعر المكبوتة : *Veiled Sentiments* – صفحة ٢٣٤ ، صفحة ٢٣٥) ، وقبل ذلك تعرضت للوم شديد من قبل زوجة مُضيفها عندما أطلعته علي شعر سمعته من امرأة كانت ترغب أن يساعدها علي فهمه .

فالواقع أن بعض هذه الأشعار التي تتضمنها كتب العصر الوسيط ، تبدو وكأنها سمعت في لحظه سهو : كأن نافذة كانت مفتوحة واستطاع أحد الأشخاص أن يشاهد مشهدًا شعريًا شخصيًا ، فمثلاً والد " قسمونة " انظر : (تريسا غارولو الديوان : صفحة ١٢١ ، صفحة ١٢٣) استطاع أن يستمع إليها وأن ينقل الأبيات التي كانت تنظمها ابنته " قسمونة " في حديقتها والتي

كانت تسلي فيها وحدتها وتبوح فيها بأسرار غرامها ، ويبدو أن الشيء نفسه حدث مع قصيدة " البَلِيشيّة [انظر " تريسا غارولو " (الديوان : صفحة ٦٢)] التـــي أوردهـــا الضـــبيّ نفاجـــأ من كونها قصيدة حب مادام الأمر يتعلق بفتاة تُحتَجب عن الناس ، وتعيش منعزلة في بيت والدها ، ومن المؤكد أن الذي قام بـــنقلها هـــو أبوها نفسه . فالضّبي لا يذكر سوى أن الفتاة كانت من " بَلِيش" بمالقـــة وأنها أُمية ، ولا يكشف عن اسمها ولا عن اسم عائلتها لأنه ليس من اللائـــق أبـــداً إذاعة أحاسيس وأسرار الناس . وكونها أمية يجعلنا نفكر في أن شعرها كما هو الشأن بالنسبة للأشعار التي كانت تتغنى بها البدويات [انظر : (لـــيلى لجحود " المشاعر المكبوتة " *Veiled-Sentiments* " ، صفحة ٢٣٩ / صفحة ٢٤٩)] شفويا واحتمال أنه يشكل جزءاً من قصة حب ولولا الصدفة التـــي جعلت والدها يسمعها لبقيت ضمن خصوصياتها ، وما اطلع عليها أحد ، فالبلّشـــية مثلاً لم يفصح عن اسمها ، ويبدو أن مسألة إخفاء هوية الشواعر كـــان واحداً من المشاكل والصعوبات التي تعترض كتّاب العصر الوسيط ، في الوقـــت الذي كانوا يهتمون فيه بتصنيف وجمع الشعر النّسوي ، إذ كيف يمكن وضـــع " معجـــم " تـــراجم دون ذكـــر اسم الشخص الذي نترجم لـــه وانتمائه " فالعـــبادية ، والبلّشية والغسانية ، والشّلّبية " هي أمثلة من الأندلس فقط ، وعلـــي الأقـــل فمن أسمائهن يمكن أن نستنتج انتمائهن ، ولكن ماذا يمكن أن نفعل عندما لا نعرف حتى هذا . (١٦)

(١٦) كحـــل لهـــذه المشكلة ، انظر : عبد البديع صقر في كتابه : " شاعرات العرب " الذي يجمـــع فـــيه أشعار (٢٤٤) امرأة ، أخذ منهاجا لتعريف ناظمة القصيدة إن كانت هي مجهولـــة الاســـم ، لأن من بين الـــ (٢٤٤) شاعرة هناك (٣٩) شاعرة غير معروفة وهكـــذا فإنـــه يوزعهـــا علـــي الشكل التالي : (٢٦) قصيدة يقدم لها بامرأة ، و (٣) شاعرات منها تعرف باسم مولاها أو باسم القبيلة التي تنتمي إليها وواحدة بـــ " بعض النّســـاء " مـــن قبيلة ما " وقد تزعم هذا الحل من قبله " بشير يموت " سنة ١٩٣٤ / ١٣٥٣) ولكن ليس حلاً كاملا ولا يلغي المشكلة لأنه مثلاً في" ديوان الخوارج " الذي جمعه وحققه " نايف محمود معروف " وجدت صعوبة كبيرة في ادراج الخارجين الذين يجهل اسمهم والذين نظموا أشعاراً يبكون فيها قتلاهم ، في فهرس الشعراء والشاعرات .

رغـم كل هذا فهناك بعض الرجال يحتفظون بهذه الأشعار ويظهرون اهـتماماً بالغاً بشعر النّساء وبأحاسيسهن . وفي أحيان كثيرة ، ليس إلا لإبراز دونيتهن ونقدهن من خلاله .

وهـذا الاهـتمام الكبـير ، يظهر بشكل واضح في الكتب التي يدعي مؤلفوهـا الحـياد والـبعد عـن الانفعالات الشخصية ، كتب كالتي تجمع فيها الأشـعار وتعـنون بأسـماء القبائل التي تنتمي إليها الشواعر اللاتي نظمنها ، وأيضـاً يظهر من خلال التعليقات التي تصحب القصائد العربية القديمة . والتي تـأول ويفسر محتواها انطلاقاً من الظروف التي نظمت فيها . وأريد أن أشير هـنا إلـي أن هـذا النوع من التفسير ما يزال متداولاً بين البدو في موريتانيا حسب شهادة : (ليلي لجحود في : المشاعر المكبوتة : " *Veiled Sentiments* " صـفحة ١٧٥ ، صـفحة ١٧٧) . إن كتاب " ليلي أبو لجحود " الذي أشرت إلـيه مـرات عديـدة علي طول هذه الصفحات يعد واحداً من المراجع المهمة بالنسـبة للموضـوع الذي نعالجه الآن ، لأنه يقرر ويؤكد علي استمرار تبني بعـض السلوكيات القديمة حتى وقتنا الحاضر ، سلوكيات كالتي عُرف بها مثلاً العشـاق فـي القديـم [١٧] ، والتـي عُولجت ودُرست بشكل مستفيض أنظر : (صـفحة ٢٥ في كتاب الأدب في العصر الوسيط) ، إضافة إلي هذا فهو يسلط الضوء علي بعض مظاهر مدي تلقي هذه الأشعار وتقبلها وخصوصاً من قبل الـرجال كمثال علي هذا ، نجد في كتاب : (أشعار النّساء " للمرزباني صفحة ٨٩ – صـفحة ٨٨) قصة الرجل الذي باغت زوجته وهي تنشد قصيدة حب ، عـندما سـألها إن كانـت تعشق ، أجابت بأنها فقط أبيات مرت بخاطرها ولا تعكـس بأي حال من الأحوال وضعها . إلا أن الزوج لم يقتنع بكلامها وهددها بالضـرب إن هـي عاودت ترديدها . عند ذلك بدأت المرأة تنشد الأبيات ، والتي

(١٧) قصـة حب الحاج ، مضيف الباحثة ، والتي حكيت في الصفحات من ٢١١ إلي ٢١٣ تبدو وكأنها مقطع أدبي حول قصة حب : فالمواعيد السرية في الخلاء والتحدث بأبيات شـعرية تعـبر عن الحب والعشق ، والمخاطر التي قد تترتب علي وصول أحد أقارب الحبيـبة إلي مكان الموعد ، كلها أشياء مشابهة تماماً لما كان يحدث مع كل من جميل وبثينة ....

جمعهـا المرزباتـي فيما بعد ، حيث تؤكد علي أن العنف لن يجعلها تنثني أبداً عـن مشـاعرها ، الشيء الذي أثار غضب زوجها وجعله يطلقها ، وقد حكي فيما بعد بأن زواجها من ذلك الرجل كان رغما عنها ، وبأنها كانت تعشق رجلا آخر ، وأن الأشعار التي كانت ترددها في وحدتها عبارة عن أبيات من الشعر التقليدي أو مـأخوذة مـن قصص حب معروفة ، وفيها تعبر عن خيبة أملها وسوء حظها كما هو الحال في الأشعار المتداولة بين " أولاد علي " في بادية موريتانيا . ففي هذا الإطار لا يمكن التحدث عن عدم تفهم الزوج الذي لا يقبل حـتى فكـرة أن مـا ترده الزوجة ما هو إلا مجرد أبيات من أغنية ، أو من قصيدة قد يرددها أي أحد ، لكن نستطيع أن نشعر من خلال الشفقة التي يشعر ويحـس بهـا الذيـن ينقلون هذه الحكايات تجاه النساء بنوع من الانتقاد غير المباشر للرجال ، وفي هذا السياق نشير إلي " الأصمعي " الذي كان له رد فعل كـرد فعـل الذيـن اسـتمعوا لأشعار " فايقة: *Fayga* " أنظر : (ليلى لجحود " المشاعر المكبوتة : *Vieled Sentiments* " – صفحة ٢١٥ – صفحة ٢٢١) بحيـث تألموا كثيراً لألمها الذي كان سببه هو تزويجها ممن لا تريد وإبعادها عن حبيبها .

فالأصـمعي كما ذكر هو الذي نقل لنا أبياتا سأعطيها أهمية خاصة ، لأن موضـوع الفتاة العاشقة التي تلجأ إلي أمها لتخفف عنها حزنها وألمها ، والـذي نعرفه في المجتمع الأندلسي باسم " خرجة " *(Jarcha)* لم يظهر كثيراً فـي الشـعر العربـي القديم رغم أنه كان حاضراً بشكل أو بأخر في نوع من التعابـير الشعرية النسوية الشعبية في شمال إفريقيا وكانت تُسمي " الحَوْفِي " (انظـر : دراسـات مونريو *Monroe:-Estudios* – صفحة ١) الأبيات التي تحـدث عنها (الحلبي في " منازل الأحباب " : صفحة ٢٥٩ – صفحة ٢٦٠) رددتها جارية بدوية أمام أمها التي تعتبر في نفس الوقت بئر أسرارها ومصدر لومها وعتابها تقول :

– مهـــــلاً أمـــــــي فـــأنـــــا
– لـــــم أشـعـــر أبـــــداً بالحـــب
– ولا عانيـت مـــن عذاباتـــه وأحزانـــه

– لكـن عيـناه أرغمتاني علي أن أعشقه
– مـا إن رأيـتهما حـتى سلبتا قلبـي
– أري كـأن الـنجوم تلمـع فـي أحداقه
– تـذكـري إذن وأنـت تلـوميننـي
– بـأنهـا أحيانا – آه أحيـانا كثيرةً
– تجعـل القلـب أسيـراً
– وعـاشـقـاً
– تـبـاً لهـذا الحـب ، تـبـاً

رغم أن كتاب منازل الأحباب " للحلبي (المتوفى سنة " ٧٢٥/١٣٢) والذي وردت فيه هذه الأبيات ، جاء بعد الأصمعي (المتوفى سنة ٢١٨/٨٢٨) بوقت طويل ، إلا أن أوزانها من بحر " المتدارك " وهو ما يؤكد أنها قديمة أو منتمـية إلـي الشـعر التقليدي الشفوي الذي تضاءل الاهتمام به في الشعر العربي منذ العصر العباسي .

أما فيما يخص الأبيات التي وردت أعلاه ، فهي ليست جزءًا من حكاية ولكن كما قلت سابقا ، كان من المألوف أن تصحب الأشعار تعليقات تفسرها ، انطلاقـا من الظروف التي أحاطت أو نظمت فيها . وهذه التعليقات تحولت مع مـرور الوقت إلي قصص حب تطورت وصيغت بشكل روائي جميل وهي الآن تمـلأ الأجزاء الخاصة بمواضيع العشق في كتب الأدب ، وبهذا يمكن اعتبارها واحـدة مـن أهـم المراجع التي قد تساعدنا علي دراسة هذا النوع من الشعر وفهمـه بالإضافة طبعا إلي العديد من كتب الأدب المتوفرة ، وبالفعل فقد أفادت الكثـير مـن الباحثين العرب الذين شغفوا بجمع الشعر النّسوي الكلاسيكي في العربية القديمة .

وساعدت في إثراء التراث العربي بمزيد من المؤلفات التي تعتني بهذا الموضوع ، ابتداء من كتاب " الدر المنثور في طبقات ربات الخدور " لصاحبته زينـب فـواز ومـرورا بكتاب " شاعرات العرب " لصاحبه عبد البديع صقر ، وانـتهاء بـالمؤلف الحديث " معجم النّساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام " لعـبد الأمـير علـي المهني ، لكن رغم كل هذا ما نزال في حاجة إلي دراسة منهجية ومستفيضة لهذا الشعر ولموضوعاته وأهم مميزاته .

المراجـــع

١- آبـــيلا : ماريـــا لويسا : " النّساء العالمات فى الأندلس " ، بحث مقدم فى الملـــتقى الخـــامس لأبحاث المنظمات العالمية ، عن دور المـــرأة فـــى إسبانيا العصر الوسيط فى الأندلس والممالك المســـيحية " والـــذى نظمه مركز دراسات المرأة بجامعة أوتونوما ، بمدريد ، ص ١٣٩ – ١٨٤ ، ١٩٨٩ .

٢- آربـــيرى – أ – ج : " المعلقات السبع " الفصل الأول فى الأدب العربى ، لندن إلين وأنوين ، نيويورك ، ماكميلان ، ١٩٥٧ .

٣- الأصـــفهانى ، أبـــو الفرج : " الإماء الشواعر " تحقيق : نورى حمودى القيســـى ، ويونـــس أحمد السامرائى ، ط. بيروت ، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، ١٤٠٤/١٩٨٤ .

٤- بلامـــى ، ج – أ – ، بعـــض الملاحظـــات عن الرثاء العربى فى الجاهلية والإســـلام ، القـــدس العربـــية والإســـلام (المجلد) الثانى عشر ، ص ٤٦ – ٦١ .

– " أغـــانى العهـــد العربى القديم " (العصر الجاهلى ، وأغانى الـــرثاء) ، مجلـــة فينا لعلوم بلاد الشرق ، العدد الثانى ، ١٨٨٨ ، من ص ١٦٤ – ١٦٧ .

٥- بنشيكى : جمال الدين ، الشواعر العرب ، باريس ، ١٩٧٥ .

٦- بيســـتون ، أ. ف. ل. الرســـالة على بنات مطربات ، جابيز ، وأرمنتيستر إرس / وفيلبس ، ١٩٨٠ .

٧- تـــوزن ، إلين : " الصوت المرتفع ، الشعر النّسوى فى قبائل موريتانيا ، العـــالم الإســـلامى والشرق الأوسط ، جـــ٥ ، ١٩٨٩م ، من ص ١٧٨ – ص ١٨٧ .

٨- جولـــد تسهير ، إجناسى ،مخطوطات مجموعة ،الناشر، دى جوزيف دى سموجى – هلدرس هايم، ناشر الكتب، جيورج أولم،١٩٦٨

٩- ابن حزم : طوق الحمامة ، ترجمة : إميليو غرثيا غومث ، مدريد ، ط ، إلبانزا ، ١٩٧١م .

١٠- الحلـــبى ، شـــهاب الدين محمود بن سليمان : " منازل الأحباب ، ومنازل الأبـــواب " تحقيق عبد الرحمن محمود عبد الرحمن ، ط ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٩ .

١١- ابـــن ردّاس : عـــبد الله بن محمد : شاعرات من البادية ، الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر (د .ت) .

١٢– الـزوزنى : " شرح المعلقات السبع " ط. الرابعة ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٥٩ .
١٣– زيـتر ، م ، " التعـليم الشفوى فى الشعر العربى الكلاسيكى : شخصيته ومحتوياته " ، طبعة جامعة أوهايو ، ١٩٧٨م .
١٤– ابـن الســاعى : " نسـاء الخلفاء " ، تحقيق : مصطفى جواد ، مصر ، دار المعارف .
١٥– ســتيتكفيتش ، ســوزان بـنكى : " الخوالد الصامتة تتحدث ، الشعر قبل الإســلام ، علم العروض للطقوس ، لندن ، مطبعة جامعة كرونيل ، ١٩٦٨م .
١٦– ستيسـجوين ، إف ، تاريخ الخط العربى ، العدد الثانى ، الشعر ، ليدن ، بريل ، ١٩٧٥م .
١٧– ســويان : سعد عبد الله : الشعر النباتى ، الشعر الشفهى ببركلى – لوس أنجلوس ، طبعة جامعة كاليفورنيا ، ١٩٦٨م .
١٨– الســيوطى : جـلال الديـن " المستظرف من أخبار الجوارى " تحقيق : صـلاح الديـن المنجد ، ط الثانية ، بيروت ، دار الكتاب الجديـد ، ١٩٧٦ ، والطبعة الأولى ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٦٣ .
١٩– شـيخو ، لويس ، " رياض الأدب فى مراثى شواعر العرب " ، بيروت ، ١٨٩٧ .
٢٠– صـقر : عـبد البديع : " شاعرات العرب " : القسم الأول " ، منشورات المكتبة الإسلامية ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .
٢١– ابـن طـيفور : أبو الفدا أحمد بن أبى طاهر ، (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣هـ) : " بلاغات النساء " ، بيروت ، دار الحداثة ، ١٩٨٧م .
٢٢– غارثيا غومث ، إميليو : " الشعر العربى الأندلسى " ، مدريد ملو تاركو ، ١٩٣٠ .
٢٣– غارولو : تريسا : " ديوان شواعر الأندلس " ، مدريد ، أبيرون ، ١٩٨٦ .
– : " شاعرة أندلسية من الشرق سارة الحلبية " ، القنطرة ، المجلد السادس ، ١٩٨٥ ، ص ١٥٣ – ١٧٧ .
٢٤– غازى : محمود فريد ، " الصورة أو الخيال فى الأدب العربى " ، أربيكا ، رقم (٤) ، ١٩٥٧ .
٢٥– فدريكو : كورينتى ، المعلقات ، مدريد ، ١٩٧٤ .
٢٦– فـواز ، زينـب : " الـدر المنثور فى طبقات ربات الخدور " ، بولاق ، المطبعة الأميرية ، ١٤١٢ .

٢٧- كـاتون ، ستيفن ، س . الممارسات الثقافية فى قبيلة نورتيب اليمنية ، تريـب ، بيركـيلى ، لـوس أنجلـوس - مطبعة جامعة كالفورنيا ، ١٩٩٠ .
٢٨- كوفـيلى ، بريدخيـت : هوية وملحمة القبيلة العربية - بيركيلى - لوس أنجلوس ، جامعة كالفورنيا ، ١٩٨٦ .
٢٩- لجحـود ، لـيلى ، المشـاعر المكـبوتة " الشرف والشعر فى المجتمع الـبدوى " ، بيركـيلى ، لوس أنجلوس - مطبعة جامعة كالفورينا ، ١٩٨٨ .
٣٠- المـرزبانى : أبـو عبيد الله محمود بن عمران : " أشعار النِّساء " جمع وتحقـيق : سـامى مكى العانى ، وهلال ناجى ، بغداد ، دار الرسالة للطباعة ، ١٩٧٦ - ١٣٩٦ .
٣١- المقـرّى : نفح الطيب ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٩ .
٣٢- المزنى : عـبد الأمـير علـى : " معجم النِّساء الشاعرات فى الجاهلية والإسـلام " ، بـيروت ، دار الكتب العالمية ، ١٩٨٠ - ١٤١٠ .
٣٣- مونـرو ، جـيمس ، ت : " دراسـات عـن الخرجة ، والشعر الشعبى بشـمال إفريقـيا " مجلة كلية الآداب الإسبانية ، جـ٤ ، ص ١-١٦ ، ١٩٧٦م .
٣٤- " نـزهة الجلسـاء فـى أخبار النِّساء " ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٥٨ .
٣٥- هـافلوك ، إيـرك ، أ ، " ألهـة الشعر تتعلم كيف تكتب " تأملات الشعر الشـفهى ، معرفة القراءة من العصور القديمة إلى الوقت الحاضـر ، الجـنة الجديدة - لندن ، مطبعة جامعة ييل ، ١٩٨٦م .
٣٦- الوشّـاء : الموّشـى ، ترجمة : د. تريسا غارولو ، مدريد ، الفاجورا ، ١٩٩٠ .
٣٧- ويـنج ، والـتر ، ج ، " الشفوية ومعرفة القراءة وتكنولوجية الكلمة " ، نيويورك ، ط ، روت ليدج الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ .
٣٨- يمـوت : بشير ، " ديوان الجوارى " ، تحقيق : نايف محمود معروف ، بيروت ، دار المسرة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
ـ شـاعرات العـرب فى الجاهلية والإسلام " ، بيروت ، المكتبة الوطنية ، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م .

الدراسة

ممـا تقدم يتضح لنا أن موضوع البحث يرتكز حول قضية بَوْح المرأة العربية الشاعرة عن عاطفة الحب .

فهـل عـندما نحاول أن نسلك الطريق إلى هذا الموضوع هل سنجده معبداً ؟ ولاسيما ونحن نعرف أن المرأة العربية ربما لما أحيط بها من ظروف معيشـية خاصة فى مجتمعها كانت كتومة ، فالمرأة ربما تكون أكثر لهفة من الـرجل على الاستمتاع بالحب ، إلا أنها تعرف متى تكتم عواطفها ، فهى تحب أن تكـون دائمـاً المطلوبـة وليست الطالبة ، وإذا كان المجتمع العربى أقصى الشـاعر عن حبيبته إذا أراد الزواج ، لأنه تغزل بها ، فالمجتمع العربى نفسه كـان أشد قسوة على المرأة حين تُصرّح بحبّها ، كما يجب ألا نغفل أن العربى كـان يحـب المرأة مرغوب فيها ، لا راغبة على حد قول الشاعر سُـليك بن السلكة :

يعـاف وصـال ذات الـبذْل قلبى وأتّـبع الممـنّعة الـنّوارا [1]

فجمـيع الشعراء القدامى ساروا على هذا الدرب ، ومما يؤكد هذا ما ذهب إليه ابن رشيق فى كتابه العمدة إذ يقول " قال بعضهم : العادة عند العرب أن الشـاعر هو المتغزّل ، وهو المتَماوتُ ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هى الطالـبة والراغبة المخاطبة ، وهذا دليل على كرم النّحيزة فى العرب وغيرتهم على الحُرم " [2] .

وإذا دققـنا النظر فى أمهات الكتب [3] وجدنا أنه يندر فيها هذا النوع المباشـر أو المتوهّج من التعبير عن عاطفة الحب ، ولعل السبب فى ذلك هو

---

(١) الأصـفهانى : (أبـو الفرج ، على بن الحسين بن محمد الأموى) : الأغانى : جـ ٢ ، صفحة ٣٦٤ ، طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) ابـن رشـيق : (أبـو على ، الحسن بن رشيق القيراوانى) : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ، نشر محمد محيى الدين عبد الحميد ، جـ ٢ ، صفحة ١٤٨ .

(٣) انظـر : الطـبقات لابـن سـلام ، والمفضليات للضبى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، والمؤتلف والمختلف للآمدى ، وديوان الحماسة لأبى تمام والبحترى ... الخ ، وتأمل =

حـرص الـرواة فـى هذه الفترة على التعامل مع " الغريب الأعرابى الجزل " والنِّسـاء ليس لهن فى هذا المجال الكثير ، ثم إنهن لم يتناولن أغراضاً عديدة كشـعر الرِّجال ، وإنما كن يملن إلى استخدام الغرض الواحد ، أضف إلى ذلك أن دور المـرأة فـى الحـروب كان محدوداً ، ومن المعروف أن الغالب على أمهـات الكتـب هـو شـعر الحماسة ، كذلك كان دورهن محدوداً فى الرواية والـنقد ، ومـا روى عـن مشـاركات النِّسـاء كالفارعـة بنت أبى الصلْت ، وأم جُـندب ، وابنة الأعشى ، وعمرة الجمحيّة ... الخ يعتبر محدوداً ، ولهذا كـان مـن الطبـيعى أن يُظلم شعر المرأة ، فإذا قيل أن الشعر العربى فُقِدَ منه الكثير على نحو ما ذهب إليه رجال كأبى عمرو بن العلاء ، وابن سلاّم ، فإننا نوافق على هذا ، ولكن ليس من المعقول أن تكون عملية الفقد قد وقعت بصفة خاصة على شعر النِّساء وبخاصة حين نعرف أن هناك شعراً قيل على ألسنتهن من الرجال كقول امرأة فى رثاء :

ألا تفهمـيـن الخُـبْرَ أن لستُ لاقيا ... أخـى إذْ أتى من دونِ أكفانهِ القَبْرُ

فكلمـة " لاقيا " فى البيت تدل على أن القائل رجل لا امرأة [٤] ومعنى هـذا أن المجـتمع العربى كان يسمح بشئ من هذا ، ومن المعروف أن بعض الشـاعرات ابـتداء من العصر الجاهلى قد أوصدن هذا الباب مثلما نعرف من " الخَـرنَق بنـت بدر بن هفّان " فقد جاء فى مقدمة ديوانها " لم تنظم فى غير الرثاء والهجاء " [٥] .

مما سبق نعرف أن المرأة فى الجاهلية قد قصّرت فى التّعبير عن هذا الجانـب ، وفى توجس ما – كتبت على حياء – وقد كان وراء هذا الخوف من

= مقولة بشار بن برد : لم تقل امرأة شعراً إلا تبين الضعف فيه ، فلما قيل له : أو كذلك الخنساء ؟ قال : تلك فوق الرجال .

(٤) أحمـد الحوفـى : الغـزل فى الشعر الجاهلى ، ٦١٠ ، الطبعة الثانية ، نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٢ م

(٥) ديوانهـا الخـرنق بنـت بـدر ، تحقيق : د. حسين نصار ، الطبعة الثانية ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، وهى أخت غير شقيقة لطرفة بن العبد .

المجتمع ، وسوف نرى أن هذا الخوف سيظل يُلقى ظلاله على شعرها حتى يومنا هذا ، فرحلة الخوف لم تقف عند عصر دون عصر ، وإن كانت العصور تختلف فى نسبة الحرية التى تعطيها للمرأة ، وفى ضوء هذا يلتحق هذا المجتمع بما يسمى " الحضارة القمية " عند علماء النفس ، حيث يكون الابتلاع والمص هو المسيطر على الحياة .

ولكن أين نجد طاقة التعبير عن الحب عند المرأة فى الجاهلية ؟ فى الحقيقة سنجد التعبير عن عشق المرأة ، وطريقتها فى ممارسة العشق عند الرجل أكثر مما هو موجود عند المرأة ، فإذا بدأنا بالمعلقات مثلاً ، فإننا سنجد أنها تحتوى على عنصرين أساسيين هما جسد المرأة منظوراً إليه من الخارج ، وعلاقة الرجل بالمرأة من حيث هى الشق الآخر للوجود البشرى ، فكل منهما كان فى حاجة للآخر [٦] ، ولنأخذ مثلاً لأمرئ القيس ومنه سنتعرف على طريقة ممارسة المرأة للحب :

ويضا-ربٌ يوم قد لهوتُ وليلة ... بانسة كأنها خطُّ تمثال

إذا ما الضَّجيعُ ابتزّها من ثيابها ... تميلُ عليه هونَه غير مجبال

فلما تنازْعنا الحديثَ ، وأسْمَحَتْ ... هَصَرْتُ بغصنٍ ذى شماريخ مَيَّال

وصِرْنا إلى الحُسنى ، ورقَّ كلامنا ... ورضتُ فذلّت صَعْبةً أيَّ إذلال [٧]

فإذا تركنا المعلقات ، وفيها الكثير من طريقة تعاطى المرأة للحب ، نجد مثلاً هذا الأنموذج للشنفرى الأزدى :

ألا أمُّ عمرو أجمعت فاستقلت ... وما ودَّعتْ جيرانها إذ تولَّت

---

(٦) امرؤ القيس حياته وشعره ، د: الطاهر أحمد مكى ، صفحة ١٨٥ ، طبعة مكتبة الآداب ، الطبعة التاسعة ، ٢٠٠٢ ، وانظر : تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، د. شكرى فيصل ، صفحة ١٥١ ١٥٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ١٩٨٦م .

(٧) انظر معلقة امرئ القيس : الديوان ، صفحة ٢٩ – صفحة ٣٠ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها ... إذا ما مشتْ ولا بذات تلفُّت
تبيتُ بُعَيْد النوم تهدى غبوقَها ... لجارتها ، إذا الهديُّة قلَّت
إذا هو أمسى آب قُرَّة عينه ... مآب السعيد ، لم يسل : أين ظلت
فدقَّت ، وجلَّتْ واسبكرَّتْ ... وأكملت فلوجنّ إنسانُ من الحسن جنَّت
ثبتنا كأن البيتَ حُجرَ فوقنا ... بريحانة ريحتْ عشاء وطُلَّت
بريحانةٌ من بطن حَلْية نوَّرتْ ... لها أرجٌ ما حولها غير مُسْنِت[8]

هذا ما كانت تعطيه الحبيبة الزوج ، وهناك ما تعطيه العشيقة ، وطريقتها فى العطاء على حد ما نعرف من مغامرات سحيم عبد بنى الحسحاس الغزيرة ، فهو يقول فى واحدة منهن :

وبتنا وسادانا إلى علجانةٍ ... وحفَّف تهاداه الرياح تهاديا
توسَّدنى كفا ، وتثْنى بمعصم ... علىَّ ، ونحوى رجلها من ورائيا
وهبَّت لنا ريحُ الشمال بقرَّة ... ولا ثوب إلا بردُها ورداثيا
... وأشهد عند الله أن قد رأيتها ... وعشرين منها إصبعا من ورائيا
فمازال ثوبى طيبًا من نسيمها ... إلى الحول حتى أنهج الثوب باليا[9]

ونترك هذه النماذج الصارخة فى عالم الحس ، ونتوجه إلى الذين دخلوا فى دائرة ما يسمى بالشعر العفيف ، وتعلقوا وعرفوا بواحدة فقط كعبد الله بن علقمة الذى يقول فى حبيشة :

إذا غُيبتْ عنى حبيشة مرة ... من الدّهر لم أملكِ عزاءً ولا صبرا
كأنّ الحشى حرُّ السَّعير يحشه ... وقود الغضى والقلب مستعرا[10]

---

(٨) شرح اختيارات المفضل ، تحقيق : فخر الدين قباوة ، جـ ١ ، صفحة ٥٢٢ – صفحة ٥٣١ .

(٩) أخبار النِّساء : لابن قيم الجوزية ، صفحة ٧٦ ، شرحه وقدم له : عبد الأمير مهنا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٠ م .

(١٠) أخبار النِّساء فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، تحقيق : عبد الأمير مهنا ، صفحة ٩٥ ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م .

ومثل المرقش الأكبر الذى يقول فى أسماء :

وربَّ أســـيلة الخديـــن بكـــرٍ مـــنعّمة لهـــا فـــرع وجـــيدُ
وذو أثـــر شـــتيت النبـــت عـــذب نقـــىّ اللـــون بـــرّاق بـــرود
لهـــوتُ بهـــا زمانـــاً فـــى شبابى وزارتهـــا النجائـــبُ والقصيد (١١)

ومـــن هذيـــن الأنموذجيـــن – وغيرهما – نلاحظ أن ما اصطلح على تسميته بالشعر العفيف لم يكن يخلو تماماً من الحس ، فعملية الإلغاء لا تستقيم مع واقع الصلة بين العواطف والغرائز فى الطبيعة البشرية . (١٢)

الـــذى يعنينا مما تقدم أن الشاعر الجاهلى قدم هذا النوع من الهناءات الـــتى كـــان يســـتدعيها الحـــب ، وقد صور المرأة مشاركة فى هذا الجانب ، ومســـتمتعة كالرجل وأكثر ، مع ملاحظة أن أكثر ما تأتى به كان يتم من خلاله ! مع ملاحظة أنه سيدور أكثر ما يدور فى دائرة " الغزل " لا دائرة الحب .

فـــإذا عرجنا إلى المرأة فى الشعر الجاهلى وجدناها محاصرة ، وغير مقبول منها البوح ، فقد كانت تُهدد إن فعلت بالضرب والطلاق ، وبقطع اللسان فعند تزوج عقيلى امرأة من قبيلته ، وسمعها تترنم ببيت من الغزل ، قال لها : لعلك عاشقة ، وأنذرها إن عادت لما فعلت ليوجعنّ ظهرها وبطنها ، فقالت :

فـــإن تضربوا ظهرى وبطنى كليهما فلـــيس لقلـــب بيـــن جنبى ضاربُ
يقولـــن : عـــز النفس عمّن تودُه وكـــيف عزاء النَّفس والشوقُ غالبُ

فما كان منه إلا أن طلقها ، وقد كانت هناك امرأة لخمية تسمى سُعدى تحـــب ابـــن عمها فلما خاف أهلها عليها من هذا الحب أنذروها بأنه إذا نطقت فيه بشعر سيقطعون لسانها ، فما كان منها إلا أن قالت :

خلـــيلىَّ إن أصـــعدتما أو هبطـــتما بـــلاداً هـــوى نفسى بها فاذكرانيا
ولا تدعـــا إن لامـــنى ثـــمّ لائـــمٌ علـــى ســـخط الواشين أن تعذرانيا

(١١) الشـــعر والشعراء لابن قتيبة : جـــ ١ ، صفحة ٢١٠ ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

(١٢) الحب المثالى عند العرب : د. يوسف خليف ، صفحة ٤٨ .

فقد شفّ جسمى بعد طول تجلدى أحاديثُ من عيسى تُشيب النواصيا
سأرعى العيسى الودّ ما هبّتْ الصبَّا وإن قطعوافى ذاك عمدًالسانيا[١٣]

كما كانت هناك من غلب البوح قدرتها كقول امرأة من كثعم فى كعب بن طارق :

فإن تسألونى من أحبُّ فإننى أحب – وبيت الله – كعب بن طارق
أحب الفتى الجعد السلولى ناضلا على الناس معتادا لضرب المفارق

وقد تولهت فارعة بنت ثابت فى عبد الرحمن بن هشام المخزومى فقالت :

كيف تلحونى على رجل آنسٍ تلتذُّ كبدى
مثل ضوء البدر صورته ليس بالزّميلةِ النكد
من بنى آل المغيرة لا خامل نكْسٍ ولا جحد
نظرت يوماً فلا نظرتْ بعده عينى إلى أحدِ !

والمرأة المطلقة كان لها دور أيضاً فهى لا تنسى الزوج والحنين إليه ، مثلما فعلت كل من زينب بنت فروة المُرّيّة التى كان طلقها ابن عم لها ، كما فعلت أم الضحاك المحاربية حين طلقها زوجها قالت :

وأعجلنا قُرب المحلّ حديث كتشنيج المريضين مُزعج
حديث لو أن اللحم يُصلىَ بحرّه طرياً .. أتى أصحابه وهو منضجُ

وهناك من يتعامل مع الجنس على نحو رمزى أو مكشوف ، كما أن هناك من يرمز للحبيب بالوطن ، : " وبنجد " على وجه الخصوص على نحو ما نعرف من " أسماء المرّية " فى قولها :

أيا جبلىّ وادى عريعرة التى نأت عن ثوى قومى وحُمّ قدومها
ألا خليا مجرى الجنوب لعله يداوى فؤادي من جواه نسيمها
وكيف تداوى الريح شوقًا مماطلا وعينا طويلا بالدّموع سجومها[١٤]

(١٣) أخبار النّساء : لابن قيم الجوزية ، صفحة ٦٠ .
(١٤) أخبار النّساء : لابن قيم الجوزية ، صفحة ٦٠ .

ومـــن الأدلـــة علـــى أن " نجـــدا " صار رمز تركيز الشاعرات عليه ، وهـــو تركـــيز يؤكـــد علـــى رفض المجتمع للإصغاء إلى سماع صوت الأنثى بوضوح .

فى العصر الإسلامى والأموى :

حيـــن جـــاء الإسلام كرم المرأة وأعطاها حقوقاً لم تكن تتمتع بها من قبل ، وترتقى العلاقة بين الرجل والمرأة لتصل إلى " المودة والسكن " كما رفع عـــنها الكثير من المعوقات التى كانت مباحة فى الجاهلية مثل منع نكاح امرأة الأب ، والجمـــع بين الأختين ، وإذا كان الإسلام قد أبطل " الظهار " فإنه قد أقر " الخُلْـــع " لصالحها ، وفى الوقت الذى أعطاها فيه حق الميراث أعطاها الحق فى أن تكون العصمة بيدها ، وطلب الطلاق للضرر .. الخ .

والرســـول الكـــريم (صـــلى الله عليه وسلم) كرم المرأة الشاعرة ، وكـــان يســـتزيد مـــن شـــعر الخنســـاء ، وحيـــن عاتبـــته قتيلة بنت الحارث علـــى مقـــتل أبـــيها وأســـمعته شـــعراً قـــال : لـــو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته [١٥] .

ويـــأتى مـــن بعـــده (علـــيه الصـــلاة والسلام) الخلفاء الراشدين ، وقـــد ســـاروا علـــى هذا الطريق ، فمما يُرى أن الخليفة أبى بكر الصديق كان يسير فى أحد طرق المدينة سمع جارية تطحن وتقول :

وعشـــقته مـــن قـــبل قطع تمائمى ... متمايســـاً مـــثل القضـــيب الناعم
وكـــأن نـــور الـــبدر ســـنة وجهه ... يُـــنمى ويصـــعد فـــى ذؤابة هاشم
وأنـــا الـــتى لعـــب الغـــرامُ بقلبها ... فبكـــتْ بحـــبِ محمـــد بن القاسم

فما كان منه إلا أن دق بابها ، وحين خرجت إليه قال لها : ويلك أحرة أم مملوكة ، قالت : مملوكة يا خليفة رسول الله ، فما كان منه إلا أن سار إلى

---

(١٥) الممـــتع فى علم الشعر وعمله : لعبد الكريم النهشلى ، تحقيق : د. المنجى الكعبى ، صفحة ١٧.

المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبى طالب (١٦) .

ونستدل من هذا أن أسلوب المجاهرة فى المدينة كان عالى الصوت من النِّساء ، فمن المعروف أن عمر فى طوافه بالمدينة سمع " فريعة بنت همام " تقول :

يا ليت شعرى عن نفسى أزاهقه ... منى ولم أقض ما فيها من الحاج
هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل ... سهل المحيّا كريم غير ملحاح
تنميه آباءُ صدق حين تنسبه ... أخو قداح عن المعروف خراج

وقد أرسل الخليفة عمر إلى نصر بن حجاج ، وحين رأى فتنته على النِّساء قال : والله لا تساكنى ببلدة أنا بها وسيره إلى البصرة (١٧) .

والذى يعنينا هنا هو حرية المرأة التى تمتعت بها فى الإسلام ، فى رفع صوتها فى هذا الوقت المبكر بالمدينة .

إننا نجد أن المرأة فى صدر الإسلام – كأختها أيام الجاهلية – كانت شديدة الوفاء والتعصب لقبيلتها وخاصة لأقاربها من ناحية أبيها ، وبالبرغم من أنها كثيرًا ما كانت تزوج من رجل يكبرها سنًّا – وهذا دون استشارتها فى الأمر ، على الأقل فى حالة زواجها وهى صغيرة – فإنها كانت وفية لزوجها وهى حى ، وكثيرًا ما كانت تظل وفية لذكراه بعد موته " فنائلة بنت الفرافصة " لما زُفت إلى عثمان بن عفان وأدخلت عليه وكان إذ ذاك قد ناهز السبعين من العمر – وضع قلنسوته عن رأسه وبدا صلعه ، فخاف أن يغمها ذلك ، فما كان من " نائلة " إلا أن قالت إنها من نِّساء (أحبّ أزواجهن إليهنّ السادة الصلع) .

---

(١٦) أخبار النِّساء لابن قيم الجوزية ، صفحة ١١٥ ، تحقيق : نزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٤م .
(١٧) تاريخ عمر : لابن قيم الجوزية ، صفحة ٨٤ ، ط ٢ ، الدار القومية للطباعة والنشر .

دام زواج " نائلـــة " لعثمان سبع سنوات فقط فخطبها الرجال بعد موته ومـــنهم معاويـــة بن أبى سفيان ، ولكنها أبت الزواج منهم جميعًا ، ويقال إنها أخـــذت حجـــراً ودقـــت بـــه أسنانها ولما سئلت عن ذلك أجابت قائلة : " خفت أن يـــبلى حزنى على عثمان فيطلع منى رجل ما أطلع عليه عثمان وذلك ما لا يكون أبدًا " . (١٨)

وكل ما يعنينا من هذا أن المرأة قد نالت قسطاً وافرًا من الحرية جعلها تـــرفع صـــوتها فى هذا الوقت المبكر ، بل ازدهر الشعر النّسائى ، فاشتهرت شاعرات مثل " صفية بنت عبد المطلب ، هند بنت عتبة بن ربيعة ، قتيلة بنت الحارث ، هند بنت الحارث المرّية ، إلى جانب الخنساء . (١٩)

فقـــد ازداد حديـــث المـــرأة عن الحب وأعلنت عن مشاعرها بوضوح وجرأة ، فهناك أم خالد الخثعمية التى عشقت جحوش العقيلى ، فقالت :

فأقســـم أنـــى قد وُجدتْ بجحوش ... كمـــا وجـــدت عفـــراء بابن حزام

ومـــا أنـــا إلا مـــثلها غـــير أننى ... مؤجلـــة نفســـى لوقـــت حمـــام

فـــإن كنت من أهل الحجاز فلا تلجْ ... وإن كنـــت نجديـــا فلجْ بسلام(٢٠)

وهـــناك قصـــة حب جميلة بين ليلى الأخيلية ، وصاحبها توبة ، وقد رسمت له أكثر من صورة تقول :

وذى حاجـــةٍ قلـــنا له : لا تَبُحْ بها ... فلـــيس إلـــيها مـــا حييـــتَ سبيلُ

---

(١٨) الحدائـــق الغـــناء فى أخبار النّساء : لأبى الحسن على بن محمد المعافرى المالقى ، تحقيق وتقديم : د . عائدة الطيبى ، صفحة ١٤ ، طبعة الدار العربية ، ليبيا – تونس ، ١٩٧٨ م .

(١٩) أخـــبار النّساء فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، تحقيق : عبد الأمير مهنا ، صفحة ١٩٢ ، صفحة ١٩٤ .

(٢٠) الأمالى : القالى ، جـــ٢ ، صفحة ١٠ .

لَـنا صـاحبٌ لا ينبغى أن نخونَه وأنـتَ لأخـرى فـارغٌ وخليلُ[٢١]

وهـناك أم الورد العجلانية ، قال ابن الكلبى تزوجت برجل فعجز عنها فقالت :

إن تسـألونى عـنه ما كان الخبر عذَّبـنى الشـيخ بـأنواع السهر
حـتى إذا ما كان فى وقت السحر وركّب المفتاح فى القفل انكسر[٢٢]

كمـا وردت أبيات لها فى زوج آخر لا تقل عن الأبيات السابقة جرأة ، ولقـد تباينت وجهات النظر فى الرجال مثل هذا نجده فى قول رملة بنت عمرو بـن ربيعة ، التى كان قد تزوجها كعب بن معاوية فعندما مات وتزوجت غيره قالت :

إنـى والـبعولة بعـد كَعْـب كشـارى قرمة بابن المخاض[٢٣]

وهـناك شـعر كثـير ماجن تتعامل فيه المرأة بعالم الجنس ، بل كن يتباهيـن عندما يتعاملن مع هذا النوع من الشعر ومثل هذا ما جاء على لسان ضاحية الهلالية التى تقول :

ثكلـت أبـى إن كنـت ذقت كريقه سُلافاً ، ولا ماءً من المزن صافيا
وأقسـم لـو خُـيرتُ بيـن فراقه وبيـن أبـى ، لاخترت أن لا أباليا
فـإن لم أوسّدْ ساعدى بعد هجعة غلامـًا هلالـيًا ، فشلّتْ بنانيا [٢٤]

إن المـرأة فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية لم تكن فى حاجة لتلجأ إلى الرجل حتى يتحدث نيابة عنها فى معالجة بعض القضايا التى كانت تطرقها هى بذاتها .

---

(٢١) الحدائـق الغـناء فى أخبار النّساء : لأبى الحسن على بن محمد المعافرى المالقى ، تحقيق : د/ عائدة الطيبى ، صفحة ١٥٨ ، ١٩٧٨م .

(٢٢) أشعار النّساء للمرزبانى : صفحة ١١٠ ، تحقيق : سامى العانى وهلال ناجى .

(٢٣) السابق : صفحة ١١٩ .

(٢٤) شاعرات العرب : عبد البديع صقر ، صفحة ٩١ ، ط ١ ، قطر ، الدوحة ، ١٩٦٧م .

وقد وجدنا صوت الرجل فى عصر بنى أمية يرتفع ويتحدث عن قضية الزواج الثانى ومما ورد أن على بن منظور طلق امرأته فندم عليها ندمًا شديدًا فقال :

ما للطلاق فقدته وفقدت عاقبة الطلاق
طلقت خير خليلة تحت السموات الطباق

العصر العباسى :

يأتى العصر العباسى ، وينفتح على العالم ، ويزداد نفوس الدولة وتتسع رقعتها ، وتدخل الجوارى فى صميم المجتمع العباسى ، ويمكن القول إن نفوذ المرأة الحرة بدأ ينحسر لأن الجوارى كنّ على ثقافة عالية بالدنيا سواء الدنيا التى قدمنّ منها ، أو المجتمع الجديد الذى دخلنّ فيه بروح المنافسة والتحدى ، كما أن النّساء الحرائر كن يرتدين الحجاب ، ولا يستطعنّ الدخول فى علاقات مع الراغب فيهنّ ، أما بالنسبة للجوارى فكل شئ لهنّ كان على الملأ والمكشوف ، ولقد أعجب هذا السلوك الرجال على نحو ما يؤكد ذلك الجاحظ يقول : " لقد ألتف حولهنّ الشعراء وأصبح لكل شاعر جارية يعرف باسمها ، فلأبى العتاهية عتبة ، ولأبى نواس جنان ، وللعباس بن الأحنف فوز ، ولإبراهيم الموصلى خنث " . (٢٥)

لقد تغلل الجوارى فى المجتمع الجديد ، وازداد دخولهنّ فى بيوت الخلفاء فأكثر أبناء الخلفاء منهنّ ، وما يعنينا أن المجتمع العباسى ويفعل

---

(٢٥) انظر ما جاء فى رسائل الجاحظ : " ... قال بعض من احتج للعلة التى من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات ، إن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شئ فيها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحرة إنما يستشار فى جمالها النّساء ، والنّساء لا يبصرن من جمال النّساء وحاجات الرجال وموافقتهن لا قليلاً ولا كثيراً ، والرجال بالنّساء أبصر " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٤م ؛ وانظر : الحيوان ، جـ٣ ، صفحة ٧٥ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

التغيرات التى طرأت عليه عرفت المرأة العباسية كيف تعبر عن عاطفة الحب ، بل وتصرح بالحب الملتهب فى شعرها ، ونتوقف حيال الشاعرة الأديبة الأميرة " عُلَّية بنت المهدى " وهى ابنة لجارية تسمى " مكنونة " كانت عُلَّية تعبر فى شعرها عن نفسها فى جرأة عالية تقول :

إنى كثرتُ عليه فى زيارته ... فملَّ والشئُ مملولٌ إذا كثرا
ورابنى منه أنى لا أزال أرى ... فى طرفه قِطرًا عنّى إذا نظر[٢٦]

وقولها :

كتمت اسم الحبيب عن العباد ... ورددت الصبابة فى فؤادى
فواشوقى إلى نادٍ خلىٍ ... لعلى باسم من أهوى أنادى[٢٧]

وقد أجمع كل من الصولى والأصفهانى والسيوطى على أن " عُلَّية " كانت تكاتب بالأشعار خادمين لأخيها " هارون الرشيد " ، يقال لأحدهما " طل " وتُكنى عنه " بظل " والآخر يسمى " رشأ " وتكنى عنه بـ " زينب " على أنهما جاريتان ، وعندما وصل الرشيد مرة بعض شعرها فى " طلّ " حلف عليها ألا تخرج من محرابها وألا تكلم طلاً ولا تسميه باسمه وقال فى ذلك :

قد كان ما كلفته زمنًا ... يا ظل من وجد بكم يكفى
حتى أتيتك زائرًا عجلاً ... أمشى على حتفٍ إلى حتفِ[٢٨]

وقالت فى " رشأ " :

وجد الفؤاد بزينبا ... وجدًا شديدًا متعبا
أصبحت من كلفى بها ... أدعى سقيما منصبا

---

(٢٦) السيوطى : نزهة الجلساء فى أخبار النُّساء ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، صفحة ٦١ ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧٨ .

(٢٧) المصدر نفسه : صفحة ٦١ .

(٢٨) الأصفهانى : الأغانى ، جـ ١٠ ، صفحة ٢٠١ ، تحقيق : عبد الأمير المهنا ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

ولقـــد كنيـــت عـــن اســـمها عمـــدًا لكـــى لا تغضـــبا
وجعلـــت زينـــب ســـترة وكتمـــت أمـــرًا معجـــبًا[٢٩]

كانـت الأميرة " عُلَيَّة " بحكم بنوتها للخليفة المهدى ونسبها فى البيت العباسـى تعرف ، وتدرك حق الإدراك ما تفرضه التقاليد على بنات الخلفاء من قيود ، ليس من السهل التحرر منها ، أو التمرد عليها ، ومن ثمّ اضطرت منذ الصـغر إلـى مواجهـة صـراع مرير محتدم بين تيارين مختلفين بين التحفظ والالـتزام الـتام وما يُلميه عليها مركزها الاجتماعى ، وبين ميولها العاطفية والأدبية والفنية .

وقـد انعكـس هذا التأرج على نتاجها الشعرى الذى أثر عنها ، فهى ترغـب فـى التعبـير عن الحب بالشعر غزلاً ،ولكنها لا تجد متسعاً كافيًا من الحـرية فـى أن تقول ما تشاء ، ولاسيما وأن الغزل لم يكن من الموضوعات الشائعة كثيرًا فى شعر المرأة ، ولذلك وجدناها فى الأبيات السابقة تحتال على القول احتيالاً ، وتتخفى وراء الرمز ، ومن هنا جاء شعرها ذا نغمة ولون يكاد يكون جديداً على أدب المرأة . [٣٠]

وهـناك " عائشة بنت الخليفة المعتصم محمد بن هارون الرشيد " قيل كانـت أديـبة شاعرة ، ويبدو أنها كانت متسامحة مع عيسى بن القاسم ، فقد كتب إليها :

كتبـت إلـيك ولـم احتشـم وشـوقى المحبيـن لا يتكـتم

فما كان منها إلا أن كتبت إليه :

قـرأت كـتابك فـيما سـألـ ت ، ومـا أنـت عـندى بالمتهم

(٢٩) الصفدى : (صلاح الدين أيبك) : الوافى بالوفيات ، تحقيق : رمزى بعلبكى ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٨٢ ، جـ ٢٢ ، صفحة ٣٧١ .

(٣٠) د. وديعـة طـه الـنجم : أضواء على منزلة المرأة فى العصر العباسى ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن عشر ، العدد الأول ، ١٩٨٧م ، صفحة ٢٣٨ – ٢٣٩ .

آتـــتك الملـــيحة فـــى حلّـــة مـــن النور تجلى سواد الظلم [٣١]

وهناك أيضاً " خديجة بنت الخليفة المأمون " ومن شعرها فى غلام لها كانت تهواه تقول :

بـــالله قولـــوا لـــى لمـــن ذا الرشا المـــثقل الـــردف الهضـــيم الحشا
أظـــرف مـــا كـــان إذا مـــا صحا أملـــح الـــناس إذا مـــا انتشـــى
وقـــد بـــنى بـــرج حمـــام لـــه أرســـل فـــيه طائـــرًا مرعشـــا
يـــا ليتـــنى كنـــت حمامًـــا لـــه أو باشـــقا يفعـــل بـــى مـــا يشـــا
لـــو لـــبس القُوهـــى مـــن رقـــةٍ أوجعـــة القوهـــى أو خدّشـــا [٣٢]

وواضـــح ما فى هذا الشعر من جرأة إذا صحت نسبته إلى قائلته حقًا ... لاشـــك أن شعرًا كهذا منسوبًا إلى أميرات من بنات البيت العباسى كان فيه حـــرج علـــى الخلفـــاء أنفســـهم ، فمما روى : أن المتوكل استمع إلى مغنية غنـــته " بأبـــيات خديجـــة السابقة " فطرب لها ثم سأل عن قائلها فقيل لـــه : إن الشـــعر والغـــناء جميعًا لـــ " خديجة بنت المأمون " قالته فى خادم لأبيها ، وغنـــت فـــيه هذا اللحن ، فأطرق المتوكل طويلاً ثم قال : " لا يُسمَع هذا منك أحد ... " . [٣٣]

وإذا تركـــنا جانـــب الأميرات وعرجنا نحو أبرز الشاعرات فى العصر العباســـى وجدنـــا هـــناك حشدًا كبيرًا ممن عبرنّ عن الحب من خلال الشعر ، فهناك " عاتكة المخزومية " التى قالت شعرًا فيمن اسمه حسان :

شـــتان بيـــن مدبـــر ومدمـــر صـــيد اللـــيوث حصـــائد الغزلان
روعـــته مـــن بعـــد دهـــر راعنى وســـقيته مـــا كـــان قـــبل سقانى
فلقـــد ســـهرتُ لياليـــا ولياليـــا حـــتى رأيـــتك يا هلال زمانى [٣٤]

---

(٣١) السيوطى : نزهة الجلساء ، صفحة ٥٣ .
(٣٢) السيوطى : نزهة الجلساء ، صفحة ٤٢ .
(٣٣) كحالة : أعلام النّساء (نقلاً عن الأغانى) ، دمشق ، ١٩٤٠م ، جـ١ ، صفحة ٢٨١ ، ٢٨٨.
(٣٤) السيوطى : نزهة الجلساء ، صفحة ٥٨ .

وهناك " الشريفة أم العزيز " التى تقول :

لحـــاظكم تجرحُـــنا فـــى الحشـــا ولحظـــنا يجـــرحكم فـــى الخـــدود
جـــرح بجـــرح فـــاجعلوا ذا بـــذا فما الذى أوجب جرح الصدود[٣٥]

وهـــناك العديـــد من الشاعرات لمعنّ فى العصر العباسى مثل : عُريب جارية المتوكل ، وعنان جارية الناطفى ، وفضل التى أحبّت الكثيرين وغيرهنّ .

المرأة الأندلسية والتعبير عن الحب

لعبـــت المـــرأة الأندلســـية دورًا بارزًا فى جوانب الحياة المختلفة فى الأندلـــس وفـــى مجال الإبداع الأدبى بخاصة ، وكان للمرأة الأندلسية حظ وفير مـــن الشـــعر ، وهـــى مـــيزة فاق بها الأندلس غيره من أصقاع الإمبراطورية الإســـلامية ولقـــد خصـــص صـــاحب " نفح الطيب " فصلاً كاملاً عن شاعرات الأندلـــس ، رغـــم أنـــه عـــد منهنّ خمسًا وعشرين شاعرة ، وكلهن شاعرات مجـــيدات ، فمنهـــن من بلغت شأوًا بعيدًا فى مجال الإجادة ، ومنهن من فاقت الشعراء المحترمين .

كانت المرأة الأندلسية الشاعرة تقول الشعر ، وتجهر بمكنون الهوى ، وتـــرتاد ندوات الأدب ، وتواجه ما حولها من ضواغط الحياة والتقاليد ، واتفق فـــيما ذهـــب إليه د. الطاهر احمد مكى إذ يقول : " عرف الأدب العربى المرأة مطلوبـــة لا طالـــبة ، وموصـــوفة لا واصـــفة ، مهبط آمال الشعراء ، ومناط غايـــتهم ، غير أن الأدب الأندلس تميز بخاصية أن تكون المرأة من الشاعر أو مـــن المحب بعامة ماكانه الشاعر أو المحب منها فى المشرق ، تبوح بمكنون فؤادهـــا ، وتســـترجع لحظـــات صفوها ، وتتغزل فيمن تحب ولا تتردد فى أن تصف قبله الحبيب فى شعر رقيق صريح " .[٣٦]

فالمرأة الأندلسية هى تبدأ الرجل بالمبادرة ، وتتهالك على المحبوب ، وتـــتغزل صـــراحة فيمن تحب ، فهذه " ولادة بنت المستكفى " الأميرة الأموية الحســـناء الفاتنة التى أسرت كل القلوب بفتنتها وظرفها نراها حين تهيم بابن زيدون تكتب إليه تخبره بموعد زيارتها تقول :

---

(٣٥) السيوطى : نزهة الجلساء ، صفحة ٢٢ .

(٣٦) دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة : د. الطاهر أحمد مكى ، صفحة ٨٤ .

ترقب إذا جن الظلام زيارتى فإنى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالليل لم يسر (٣٧)

وكم ترجمت " ولادة " عن مشاعر الحب تجاه ابن زيدون فى غزل رقيق يجمع ما بين الصبابة ، والشكوى جريًا على عادة الشاعرات الأندلسيات اللاتى أعطين لأنفسهن الحرية الكاملة فى التغزل بالرجل كغزل الرجل بالمرأة ، ومن ذلك قولها حينما تشكو فراق الحبيب تقول :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل حب بما لقى
وقد تركت أوقات التزاور فى الشتا أبيت على جمر من الشوق محرق
تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ولاالصبر من رق التشوق معتقى(٣٨)

وتتكرر اللقاءات بين الأحبة وما كاد يفترقان حتى أنشدها ابن زيدون :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطى إذ شيعك(٣٩)

ثم تأتى بعد " ولادة " " حفصة الركونية " التى تبادر حبيبها بالزيارة ، وتعترف من أشعارها أنها باتت مع حبيبها " أبى جعفر " فى بستان بحور المؤمل حتى الصباح تقول :

أزورك ؟ أم تزور ؟ فإن قلبى إلى ما ملتم أبدًا يميل
فثغرى مورد عذب ، زلال وفرع ذوابتى ، ظل ظليل
وقد أمنت أن تظما وتضحى إذا وافى إليك بى المقيل
فعجل بالجواب ، فما جميل ابأوك عن بثينة يا جميل(٤٠)

---

(٣٧) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، جـ ٥ ، صفحة ٣٣٦ ، تحقيق القاهرة ، ١٩٤٩م ، (نشره : محى الدين عبد الحميد) .
(٣٨) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٥ ، صفحة ٢٣٧ .
(٣٩) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، جـ ١ ، صفحة ٢٧٧ ، تحقيق القاهرة ، ١٩٣٩م .
(٤٠) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٤ ، صفحة ١٨٧ .

وتتكرر زيارات " حفصة " لحبيبها ، بل تبادره بالزيارة دون دعوة مسبقة منه ، تقول :

زائر قد أتى بجيد غزال ... طامع من محبة بالوصال
ما ترى فى دخوله بعد إذن ... أو تراه لعارض فى انفصال
أتراكم بإذنكم مسعفية ... أم لكم شاغل من الأشغال (٤١)

لم تتوقف جرأة الشاعرة الأندلسية عند هذا بل نراها تصف قبلة لحبيبها فى شعر رقيق صريح ، وبأنها رشفت معها ريقًا أرق من الخمر ، وهى تقول ذلك عن تجربة ، لا تدعيها ولا تكذب فيها ، ولا تنزعها من الخيال ، تقول :

ثنائى على تلك الثنايا لأننّى ... أقول عن علمٍ وأنطقُ عن خُبْرِ
وأنْصِفُها ، لا أكذب الله ، أننى ... رشفت بها ريقًا ألذ من الخمرِ (٤٢)

نفهم من أبياتها أنه فى اللقاء بالمحبوب كان يتم العناق ، والتقبيل ، تقول :

وغرد قمرىّ على الدوح وانثنى ... قضيب من الريحان من فوق جدول
يُرَى الروض مسرورًا من فوق جدول ... عِناقٌ وضمٌ وارتشاف مُقَبّلِ (٤٣)

وتغار " حفصة " على حبيبها ، فتصف لنا غيرتها فى بيتين من الشعر ، هما من أجمل ما عرف الأدب الأندلسى تصويرًا لهذه الفكرة ، فهى تغار عليه من الرقيب ، ومن نفسه ، وزمانه ومكانه ، ولا تجد له مكانًا تصونه فيه إلى يوم القيامة غير عيونها ، تقول :

أغار عليك من عينى رقيبى ... ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أنى خبأتك فى عيونى ... إلى يوم القيامة ما كفانى (٤٤)

---

(٤١) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ ١٠ ، صفحة ٢٢٦ ، نشره د. أحمد فريد ، طبعة دار المأمون بالقاهرة ، ١٩٣٨م .
(٤٢) السيوطى : النزهة ، صفحة ٣٤ .
(٤٣) السيوطى : النزهة ، صفحة ٣٢ .
(٤٤) المقرى : النفح ، جـ ٤ ، صفحة ١٧٦ .

وهناك " أم الكرام " كانت تنظم الشعر ، وعشقت الفتى المشهور بالجمال من دانية المعروف بالسّمار تقول فيه :

يا معشر الناس ! ألا فاعجبوا ... مما جنته لوعةُ الحبِّ
لولاه لم ينزل ببدر الدُّجى ... من أفقه العُلويّ المترَّب
حسبى من أهواه لو أنّه ... فارقنى تابَعَة قلبى[٤٥]

وتأتى " نزهون القلاعية " التى كانت على صلة بالوزير " أبى بكر بن سعيد " كتبت إليه تقول :

يا من له ألفُ خِلّ ... من عاشق وصديقْ
أراك خلّيت للنا ... س منزلاً فى الطريقْ[٤٦]

نخلص مما تقدم أن المرأة الأندلسية كانت أكثر جرأة فى تعبيرها عن عاطفة الحب من المرأة فى المشرق الإسلامى ، لأنها كانت تتمتع بقدر كبير من الحرية لم يتوفر لمثيلاتها فى المشرق .

العصر الحديث :

بسقوط بغداد ٦٦٥ هـ سقطت أشياء كثيرة ، أو بعبارة أخرى قد تجمدت كل الأشياء ويأتى فى مقدمة هذا ضياع دور المرأة ، بل وتلاشيه فى بعض الأزمنة ، فإذا نظرنا إلى حال الشعراء ، رأينا أن هؤلاء الشعراء لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم ، فما بالك حين يُطلب منهم التعبير عن الآخرين أو الأخريات ، ومن هنا يمكن القول بأن التعبير عن الحب عند المرأة كاد أن يكون معدومًا ، تأمل مثلاً هذا النص لشاعرة من القرن التاسع عشر :

يا ظبى هل تدنو ليسعد ناظرى ... بلقاك إن يك للقاء سبيل ؟
لا تخش من نظرى على خديك أن ... يبدى جراحا والمياه تسيل
شهدت عيونك فى إباحة مأتمى ... فاحكم قصاصًا فالشهود عدول[٤٧]

ففى الأبيات لا تعثر على معنى جيد أو مفردات غير واردة فى شعر القدامى ، كما أن الأبيات تخلو من الصدق والواقعية .

---

(٤٥) السيوطى : النزهة ، صفحة ١٨ .
(٤٦) السيوطى : النزهة ، صفحة ٨٤ .
(٤٧) نسمات وأعاصير فى الشعر النّسائى العربى المعاصر : روز غريب ، صفحة ٥٨ ، بيروت .

ففـى العصر الحديث نجد المرأة استطاعت أن تتعرف على حقوقها ، وحاولـت جاهدة فى استعادة تلك الحقوق الضائعة منها ، إلا أنها كانت تواجه مقاومة عنيفة من الرجال والنّساء على السواء .

مع بداية القرن التاسع عشر بدأ الشعر النّسوى يظهر على يد الأوائل مـن الشواعر مثل : زينب فواز ، ووردة اليازجى ، وعائشة التيمورية صاحبة أول ديوان شعرى فى تلك الفترة " حلية الطراز " وعلى الرغم أنها فى ديوانها تسير فى نفس اللون القديم للشعر ، إلا إنه يخفى إحساس المرأة بقضية الحب فـى مجتمع ملئ بالضغوط ، فهى تشير صراحة على أن ما قالته من غزل فى ديوانها إنما كان فى غير إنسان " والقصد تمرين اللسان " .

ومهمـا يكـن فلمـا كانـت مقيدة بالأخلاقيات السائدة فى عصرها ، وبالـتراث ، فإنها لم تعط شيئاً ذا بال ، ثم ظهرت بعد ذلك الشاعرة والأديبة " مى زيادة " و " ملك حفنى ناصف " و " مارى عجمى " التى اتخذت من الطبيعة وسـيلة للتعبير عن عواطفها كامرأة ، فهى تتكلم فى قصيدتها عن وردة ، إلا إنك تحس أنها كانت تعنى نفسها تقول :

يـا وردتـى مـن ذا سقاك الندى ... وبـثّ أسـرارَ الهوى فى العيونْ
وأيقظـت أنفاسُـه سُـحرةً ... هـذه الأقاحى الساحرات الجفونْ؟
مـن ذا الـذى وافـى علـى غرّة ... فهاجـت الأرواح بعد السكون[٤٨]

ولكـن يمكـن القـول إن التعبـير عـن عاطفـة الحـب فى الشعر النّسـائى الحديث ظهر من خلال شاعرتين هما : " نازك الملائكة " ، و " فدوى طوقـان " ، فنجد " نازك " تتعلق بحبال الهوى ، إلا أنها لم تفعل شيئًا تجاه هذا الحب ، وإنما تركته حتى مات وهذا يتضح من خلال قصيدتها الأولى فى ديوان عاشقة ليل :

- وجُهـك أخفـاهُ السّنـيـن
- وضمّه الماضى إلى صـدره
- ألقى عليه من شبابى الحزين

(٤٨) نسمات وأعاصير : روز غريب ، صفحة ٥٩ .

- أحزان قلب تاه فـــى زُعـــره [٤٩]

و" نـــازك " بشكل عام كانت تعبر عن عاطفة محبطة ، ولعلها هى من ســـاهمت علـــى إحباطها لأنها كانت تشعر دائمًا بأنها والفراق أو الموت على موعد ، تقـــول :

- لنفترق الآن
- أسمع صوتا وراء النخيل
- لنفترق الآن
- أشعر بالبرد وبالخوف
- دعنا نغادر هذا المكان
- ونرجع من حيث جئنا
- غريبين .. نسحب عبء إدكاراتنا الباهتة
- وحيدين نحمل أصداء قصتنا المائتة
- لبعض القبور [٥٠]

وتـــأتى مـــع " نـــازك " الشاعرة " فدوى طوقان " التى اقتحمت عالم الحب ، وأحست أفراحه وأحزانه ، فهى فى شعرها تحب أكثر من حبيب ، ولها أكـــثر مـــن قصة حب ، وتصور لنا إحدى تجاربها بحس الأنثى وخجل المرأة الشرقية ، تقـــول :

يـــا لعينـــيك !! أى نفضـــة بعـــث ... أوجدتهـــا عيـــناك فـــى أعمـــاقى
فـــإذا بالحـــياة عارمـــة النـــبض ... بفـــيض الحنيـــن ... بالأشـــواق
كـــم حديـــث حدثتـــنى ؟ كم قصيد ... هز روحى ... وأنت تروى وتشدو
وافترقـــنا ومـــلء نفســـى – لـــو ... تدرى – أحاسيس هائمات حيارى
وهـــواى المكـــبوت يجهـــش فى ... صمت وتهمى دموعى أشعارا [٥١]

ممـــا سبق يمكن أن نقول بأن " نازك الملائكة " إذا كانت قد أجادت فى التعبير عن عواطفها المحبطة ، فإن " فدوى طوقان " عبرت عن التجارب غير

---

(٤٩) نسمات وأعاصير : صفحة ٥٥ .
(٥٠) نسمات وأعاصير : صفحة ٥٤ .
(٥١) نسمات وأعاصير فى الشعر النسائى العربى المعاصر ، روز غريب ، بيروت .

المحـبطة ، والخلاصة فهما المثلان الواضحان فى قضية التعبير عن الحب فى عصـرنا الحاضـر ، تلك صورة سريعة للحب وقضاياه ، وممارسته مما كتبته شاعرات عربيات يكتبن بالعربية .

ممـا مـر بـنا نرى أن المرأة العربية – بشكل عام – كانت كتومة – وكانـت تجـد حَـرجًا شديدًا فى إظهار عاطفة الحب فى جرأة وطلاقة ، ولعل السـبب فـى ذلك يرجع إلى أن المرأة العربية لم تخلص تمامًا للشعر المتصل بالحـب ، فقـد انشغلت عنه بأشياء أخرى غير الحب والتعبير عنه ، ذلك لأن الحـب باعتـباره قائمًـا علـى التكافؤ بين ارادتين لم يكن متوافرًا تمامًا فى المجـتمع العربى ، فالمرأة كانت دائمًا مستضعفة ، ضعيفة الصوت – مهيضة الجـناح ، ولا يُقبل منها المجاهرة بالحب ، فإذا نظرنا إلى الشاعرات العربيات بصـفة عامـة وجدنا أنهن كن ضد المجاهرة كاتجاه عام ، فإذا كان ولابد فقد كـان الـتعامل مع الرمز والتورية ، وعلى الرغم أن العصر الحديث قد أعطى للمرأة العديد من الحريات إلا أنهن لم يستطعن التعبير صراحة عن الحب ، لأن الرجل الشرقى يعزف عادة عن الزواج بالشاعرات بل المتغزلات .

كمـا أنهـا لـم تكـن ذات نفس طويل فى الحب ، ولذا لم نسمع عن مجـنونة فى الحب باسمه وإن كان من الشائع أن العديد من الرجال جنوا حبًا فى النّساء ، فهناك مجنون ليلى ، قيس لبنى ، كثير عزة ، جميل بثينة ، أضف إلـى كل ذلك تجاهل الرواة للمرأة الشاعرة كثيراً ، لأن الرواة كما هو مشهور فـى عهد الجمع والتحصيل كانوا يميلون إلى الغريب الحوشى ، وشعر النّساء يكاد يكون خاليًا من هذه الخاصية لذلك تحاشوا رواية شعر المرأة (٥٢) ، وذلك نحـو قولهـم : قالت امرأة من بنى عامر أو من بنى هذان أو عربية أو غاب عـنها زوجها ، أو تهجو زوجها ، أو ترثى أخاها ، أو إعرابية ماجنة ، أو من أجمل النّساء .. الخ .

وهـذا إن دل فإنمـا يدل على مدى الظلم الواقع على المرأة المشرقية أو العربية وإهمال بعض الرواة والمؤرخين لها .

---

(٥٢) الشعر النّسوى فى الأندلس : محمد الربسونى ، صفحة ٢٥ ، طبعة دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٨م .

المصـــادر

١- أخـبار النِّســاء : لابــن قيم الجوزية ، تحقيق : عبد الأمير المهنا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٠ .

٢- أخـبار النِّساء في كتاب الأغانى ، تحقيق : عبد الأمير المهنا ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م .

٣- أشعار النِّساء : للمرزبانى : تحقيق : سامى العانى ، وهلال ناجى .

٤- أضـواء علـى منزلة المرأة فى العصر العباسى ، د. وديعة طه النجم ، عالم الفكر ، العدد الأول ، ١٩٧٨م .

٥- أعلام النِّساء : عمر رضا كحالة ، دمشق ، ١٩٤٠م .

٦- الأغانى : لأبى الفرج الأصفهانى ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوى ، ومحمـود محمـد غنيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

٧- امـرؤ القـيس : حياته وشعره ، د. الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥م .

٨- تـاريخ عمر : لابن قيم الجوزية : الطبعة الثانية ، الدار القومية للطباعة والنشر .

٩- تطـور الغـزل بيـن الجاهلـية والإسلام : د. شكرى فيصل ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ١٩٨٦م .

١٠- الحـب المثالى عند العرب : د. يوسف خليف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

١١- الحدائـق الغـناء فى أخبار النِّساء : لأبى الحسن على بن محمد المالقى المعافرى ، تحقيق : د. عائدة الطيبى ، ١٩٧٨م .

١٢- الحـيوان : الجـاحظ (عمـر بـن بحر) ، تحقيق : عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

١٣- دراسـات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة : د. الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

١٤- ديوان الحماسة : لأبى تمام ، (شرح المرزوقى) ، القاهرة ، ١٩٥١م .

١٥- ديوان الخرنق بنت بدر : تحقيق : د. حسين نصار ، الطبعة الثانية ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

١٦- ديـوان امـرئ القـيس : تحقـيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٠م .
١٧- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة : لابن بسام الشنترينى :
- ج (١) القسم الأول : القاهرة ، ١٩٣٩م .
- ج (٢) القسم الثانـى : القاهرة ، ١٩٣٩م .
١٨- رسائل الجاحظ : تحقيق : عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
١٩- شـاعرات العـرب : عبد البديع صقر : الطبعة الأولى ، قطر ، الدوحة ، ١٩٦٧م .
٢٠- شرح اختيارات المفضل : تحقيق : فخر الدين قباوة .
٢١- شـرح المفضـليات : للمفضـل الضـبى ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، ١٩٨٣م .
٢٢- الشـعر النّسـوى فـى الأندلـس : محمد منتصر الريسونى ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٨م .
٢٣- الشـعر والشعراء : لابن قتيبة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ١٩٨٢م .
٢٤- الطبقات : لابن سلام الجحمى ، تحقيق : محمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٥٢م .
٢٥- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه : لابن رشيق القيراونى ، نشره : محمد محى الدين عبد الحميد .
٢٦- الغـزل فـى الشـعر الجاهلى : د. أحمد الحوفى ، نهضة مصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٢م .
٢٧- معجـم الأدباء : ياقوت الحموى ، نشره : د. أحمد فريد ، دار المأمون ، القاهرة ، ١٩٧٨م .
٢٨- الممـتع فى علم الشعر وعمله : عبد الكريم النهشلى ، تحقيق : المنجى الكعبى .
٢٩- نزهة الجلساء فى أخبار النّساء : السيوطى : (جلال الدين) ، تحقيق : د. صلاح الدين المنجد ، بيروت ، ١٩٧٨م .
٣٠- نسمات وأعاصير فى الشعر النّسائى العربى ، روز غريب ، بيروت .
٣١- نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب ، المقرى ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٩م .
٣٢- الوافـى بالوفـيات : الصـفدى : (صلاح الدين أيبك) ، تحقيق : رمزى بعلبكى ، بيروت ، دار صادر .